كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير في القرآن الكريم

إعداد

د/ طه عبد الرحمن عمر عبد الرحمن

مدرس أصول اللغة
في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد التاسع والثلاثون)
(الإصدار الثاني ـ الجزء السادس)

(١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م)

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير في القرآن الكريم

طه عبد الرحمن عمر عبدالرحمن
قسم أصول اللغة – كلية اللغة العربية في أسيوط- جامعة الأزهر- مصر.
البريد الإلكتروني : taha-abdelrhman.47@azhar.edu.eg

الملخص:
القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز، تحدى به العالمين وخاصة أرباب الفصاحة والبيان، والمتدبر في آيات الذكر الحكيم يلحظ تنوعًا في استخدام القرآن للألفاظ، واختلاف معناها تبعًا للسياق وإن اتفقت دلالتها في المعاجم، فالسياق يلعب دورًا كبيرًا في تحديد معنى الكلمة؛ فهو يخرج بالكلمات من محيط اللغة الساكن إلى محيط الكلام المتحرك، وقد ألمح الجاحظ إلى خصوصية دلالة اللفظة القرآنية، وأن الناس " قد يستعملون ألفاظًا وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث". من هنا علمت أن لكل حركة وحرف وكلمة وتعبير في لغة القرآن الكريم دلالة وأمارة، وأنّ السياق القرآني فيه من السعة والمرونة ما يجعلها تقبل أكثر من كلمة وتعبير، وطالما تشوقت نفسي إلى أن يجعل الله دراستي في كتابه العزيز حتى ألحق بركب من سبقني في دراسة هذا النبع الصافي، حتى حصلت على ضالتي في موضوع (أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير في القرآن الكريم). ومن أهم ما دفعني إلى اختيار هذا البحث أولاً: أنه يتعلق بكتاب الله ــ تعالى ــ أفصح الكلام وأبلغه. ثانيًا: أن القرآن الكريم يزخر بالألفاظ الخارجة من مشكاة واحدة، والباحث في تلك

الألفاظ عليه العناية بالسياق القرآني الوارد به تلك الألفاظ؛ لأنه المعين على تحديد مراد الله تعالى. ثالثًا: اخترت لموضوع البحث لفظة الخير؛ لأنها من الألفاظ المركزية العامة والشمولية التي ترتاح لها النفس، وتشتاق الأذن إلى سماعها؛ لما توحيه اللفظة من الفرح والسعادة والابتهاج، فما من إنسان إلا ويتمنى أن يكون عنده الخير. وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا تحليليًا؛ وقد استخلصت منه بعض النتائج: أولًا: أن العناية بالسياق ومراعاته في التفسير قديمة قدم التفسير بدأت مع نزول القرآن، فقد اعتمد عليه المفسرون في تفسير الألفاظ والتراكيب، ووظفوه توظيفًا سليمًا لكشف المعنى المراد بما يتناسب مع قواعد التفسير. ثانيًا: جاء لفظ الخير –من خلال السياق– مناسبًا لحال الوارد في حقهم، فهو في جانب الكفار يدور معناه حول ملذات الدنيا وزينتها من الأموال والأولاد والصحة وما شابه ذلك، أما المؤمنون فبالضد منهم، فهم يرجون خير الدنيا والآخرة. ثالثًا: جاء لفظ الخير في القرآن الكريم في حق المؤمنين أكثر مما جاء في جانب غيرهم، ولعل هذا يتفق مع منهج الإسلام في الرحمة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – السياق – الخير – المعنى – أثر.

The impact of the context on identifying the meaning of "goodness" in the Holy Qura'an

Taha Abdullrahman Omar Abdullrahman
Department of Language origins – Arabic language college – Al Azhar University – Assuit – Egypt
Email: abdelrahman.47@azhar.edu.eg

Abstract:-

The Holy Qura'an is Allah's marvelous sacred book with which Allah challenged the worlds , specially the scholars of eloquence and rhetoric . the thoughtful reader of the Qura'an will notice the variety of terms and its meanings according to the context , even if it has the same connotation . The context plays an essential role in identifying the meaning of the word, as it transfers the words from the tranquil linguistic atmosphere to the movable frame of utterance . Al Gahez referred to the distinguishing feature of the Qura'anic terms' connotation and the notion that people could use specific terms instead of the suitable ones . Allah mentioned "hunger" to refer to a situation of punishment , destitution or clear inability . People don't mention "starvation" , and use the word "hunger" in case of ability and well- being . Allah also mentioned "rain" in a case of revenge , also the public and most of the specialized a people don't separate the term "rain / المطر" from "الغيث" , the thing that let me know that every vowel and letter in the Qura'an has a connotation , and that the qura'anic context has the flexibility and the abundance that allow it to accept more than one word and expression . I've always longed to study Allah's most sacred book (the Qura'an) so that I can follow the steps of the people who preceded to study such a pure spring , till I choose my

subject "The impact of the context on identifying the meaning of "goodness" in the Holy Qura'an" . Reasons of choosing the subject:-- its relation to the Qura'an , in which we find the most eloquent and fluent utterance . The Qura'an is enriched with words extracted from the same source , and the researcher should tend for the Qura'anic context which contains these terms , as he is the one who interpret Allah's intended meaning . "Goodness" is one of the general central comprehensive words that comfort one's self and enjoy his ears for what it aspire of joy , happiness, and delight , because man has always been wishful for goodness . I utilized the descriptive analytical approach through my study and elicited some results: Tending for the context is as ancient as the interpretation of the Qura'an , because it existed at the time of sending it . The interpreters relied on the context through explaining terms and structures , they also used it in the best way to reveal the intended meaning fitting the rules of interpretation . The term of "goodness" was suitable , through the context , for the intended people . As for the disbelievers , the term was explained as the worldly desires and joys of money , children , and health…etc. As for the believers, they're on the other side of it because they wish for the goodness of this world and life after death . The believers were addressed by the word "goodness" more than the others , the thing that agrees with the Islamic approach of mercy .

***Keywords*: The Holy Qura'an – context – goodness – meaning – impact .**

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي شرَّف العربية بنزول القرآن الكريم، قال تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}(فصلت:٣) والصلاة والسلام على حبيبه المختار، سيدنا محمد، أفضل من أوتي جوامع الكلم، المبعوث رحمة للأنام، وعلى آله الطيّبين الأطهار، وأصحابه الأبرار الأخيار، وبعد،

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢) تحدى به العالمين وخاصة أرباب الفصاحة والبيان ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، وما زالت الهمم تترافد، والنفوس تتوق إلى التزوّد من الفيض القرآنيّ الّذي لا تدرك أسراره، ولا تُحدّ كنوز عظمته، ولا تنفد عجائبه، ولا يحاط بسرّ إعجازه، متعهّدة بكلّ ألوان البيان والإيضاح، وهذا هو ديدن العلماء والباحثين على تعاقب العصور والأزمان، إذ سعى هؤلاء إلى تفسير ألفاظ الكتاب الحكيم وتراكيبه، وبيان ما غمض منها، والوقوف على أسراره ودلائل إعجازه، وتحليل أسلوبه والكشف عن خفايا معانيه، ولايزال ميدان البحث فيها واسعًا لا تدرك نهاياته، ومجال النظر والتأمل فيها بعيد المدى، يسلب الأفئدة، ويأخذ بمجامع الألباب.

ومن أسرار إعجاز القرآن أن المتدبر في آياته يلحظ تنوعًا في استخدامه للألفاظ، واختلاف معناها تبعًا للسياق وإن اتفقت دلالتها في المعاجم، وقد ألمح الجاحظ إلى خصوصية دلالة اللفظة القرآنية بقوله:" وقد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في

القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث "[1].

وقد نشأت فكرة هذا الموضوع منذ أن كنت اتلو مع بعض أصدقائي كتاب الله، وعند قوله تعالى:﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص:٣٢) سألنا أحد الأصدقاء عن معنى الخير في الآية، فنظر بعضنا إلى بعض متحيرًا، فأجابنا بأن الخير هنا معناه الخيل، وعند قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:٢٤) طرح نفس السؤال، وأيضًا أجابنا بأنه الطعام، من هنا علمت أن لكل حركة وحرف وكلمة وتعبير في لغة القرآن الكريم دلالة وأمارة، وأنّ السياق القرآني فيه من السعة والمرونة ما يجعلها تقبل أكثر من كلمة وتعبير، وطالما تشوقت نفسي إلى أن يجعل الله دراستي في كتابه العزيز حتى ألحق بركب من سبقني في دراسة هذا النبع الصافي، حتى حصلت على ضالتي في موضوع:(أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير في القرآن الكريم).

ومن أهم ما دفعني إلى اختيار هذا البحث:

أولاً: أنه يتعلق بكتاب الله ــ تعالى ــ أفصح الكلام وأبلغه.

ثانيًا: أن القرآن الكريم يزخر بالألفاظ الخارجة من مشكاة واحدة، والباحث في تلك الألفاظ عليه العناية بالسياق القرآني الوارد به تلك الألفاظ؛ لأنه المعين على تحديد مراد الله تعالى.

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت:٢٥٥) صـ٢٦- تحقيق: المحامي فوزي عطوي- دار صعب – بيروت- ط١- ١٩٦٨.

ثالثاً: اخترت لموضوع البحث لفظة الخير؛ لأنها من الألفاظ المركزية العامة والشاملة التي تتعدد معانيها في الاستعمال القرآني، إضافة إلى أنها من الألفاظ التي ترتاح لها النفس، وتشتاق الأذن إلى سماعها؛ لما توحيه من الفرح والسعادة والابتهاج، فما من إنسان إلا ويتمنى أن يكون عنده الخير، وإن اختلفت طبيعته باختلاف هوية الإنسان المريد له.

وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا تحليليًا، وقد جاء في مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع –

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، ودوافع اختياري له، والمنهج الذي سرت عليه، والصعوبات التي واجهتني، وخطة البحث.

التمهيد: التعريف بلفظي (السياق، والخير) وقد جاء على النحو التالي–

أولًا: التعريف بالسياق، وأنواعه.

ثانيًا: التعريف بلفظ الخير، ومعانيه العامة.

المبحث الأول: أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الله ورسله.

المبحث الثاني: أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الإنسان عمومًا.

المبحث الثالث: أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق المؤمنين.

المبحث الرابع: أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الكفار.

الخاتمة: وقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها من خلال البحث.

ولا يخلو أي بحث من بعض الصعوبات، وقد عانيت منها شيئًا ليس بالقليل ذللها لي إيماني بالله وثقتي بعونه لي، ورغبتي المتواصلة في طلب العلم، ومثابرتي في الوصول إلى مبتغاي بدقّة وتثبّت، ومن تلك الصعوبات سعة المادة وشمولها، فلفظ الخير ورد في القرآن في (١٦٧) موضع أو آية، وقد يتكرر في بعض المواضع أو الآيات مرتين أو ثلاث، وسوف أجعل ملحقًا بأسماء السور وأرقام الآيات التي ورد فيها لفظ الخير في نهاية البحث.

وبعد، فهذا بحث متواضع أقدّمه اليوم، وحسبي أنّه حصيلة عناء طويل، ولعلّه يكون لي زادًا يعينني في سفري البعيد، وسلّمًا آمنًا أرتقي به إلى الحياة الأخرى، فإن كان كذلك فذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وإن كانت الأخرى فحسبي أنّ طالب العلم يخطئ ويصيب، وأنّ هذا مبلغ علمي ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦) ونسأل الله ــ جلّ وعلا ــ أن يرزقنا السّداد في القول والعمل.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلي سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

التعريف بلفظي (السياق، والخير)

ويشتمل على الآتي-

أولًا: التعريف بالسياق وأنواعه.

ثانياً: التعريف بلفظ الخير، ومعانيه العامة.

أولًا: التعريف بالسياق وأنواعه

يلعب السياق دورًا كبيرًا في تحديد معنى الكلمة؛ إذ لا يمكن تحديده إلا من خلال استعمالها في سياق، فالكلمات ليس لها معان إلا بالاستعمالات، ثم إن هذه الاستعمالات تخرج بالكلمات من محيط اللغة الساكن إلى محيط الكلام المتحرك، ولذلك فإن الترجمة الصحيحة للكلمة لا تتم من خلال المعاجم، بل من خلال معرفة المترجم بالكلمات في استعمالاتها وسياقاتها المختلفة [(١)].

فالسياق هو الفاصل- غالبًا- عند الالتباس في فهم النص، ويكفي في أهمية هذا البحث أن العلماء قديمًا قد نصوا على أهمية السياق، يقول ابن القيم:" السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة "[(٢)].

عناية العلماء بالسياق:

إن العناية بالسياق، ودراسة أثره في دلالة النص بدأت عند علماء المسلمين

---

(١) ينظر: في علم الدلالة، د/ محمد سعد محمد: صـ٣٧، مكتبة زهراء الشرق، ط١- ٢٠٠٢م.

(٢) بدائع الفوائد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية(ت:٧٥١هـ) ٨١٥/٤- حققه: هشام عبد العزيز عطا وآخرون- مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- ط١-١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

قديمًا [1]، ففي عصر السلف من الصحابة والتابعين، وقبل نشأة تدوين العلوم وتقعيدها نلمس العناية بالسياق في تراث أئمة الصحابة، ومن ذلك على سبيل المثال أنهم قد يفسرون اللفظ الواحد بأكثر من معنى بسبب اختلاف السياق، ومن ذلك مثلاً تفسيرهم للفظ (الخلق) في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:٣٠)، فابن عباس والضَّحَّاك ومجاهد فسروا (خلق الله): أنه دين الله، وعن عكرمة: الإسلام [2]. وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت:١٧) فسر قتادة قوله:﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تصنعون. وعن الحسن: تنحتون. وعن ابن عباس: تصنعون كذبًا[3].

فعلماء السلف من المفسرين راعوا السياق عند تفسيرهم للخلق في الموضعين بما يلائم الموقف، ففي الموضع الأول السياق في الفطرة، وهي التوحيد الذي هو دين الله تعالى، ففسروا اللفظة بأنها: دين الله الذي فطر الله عليه الخلق، وفي الآية الثانية السياق في الأوثان وعبادتها، فكان الملائم له أن يفسر خلق الإفك بنحت الأوثان، وصنعها.

---

(١) ينظر: البحث الدلالي في التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي، رسالة دكتوراه مقدمة من: ابتهال كاصد ياسر الزيدي- بإشراف: أ.د/ علي جميل السامرائي- كلية التربية للبنات جامعة بغداد-١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٤٩٢/٦، ٤٩٣- دار الفكر- بيروت- ط ١٩٩٣هـ.

(٣) ينظر: الدر المنثور للسيوطي ٤٥٧/٦، ٤٥٨.

وبعد عصر السلف وعند تدوين العلوم أولى المفسرون السياق عناية فائقة؛ لأن مدلول السياق يتسع ليشمل أسرار التشريع ومعاني الأحكام المبثوثة هنا وهناك والمنسجمة مع المقاصد العامة للتشريع، وليشمل ما له علاقة بالمخاطِب، والمخاطَب، وظروف الخطاب وملابساته المختلفة، وقد اتضحت هذه العناية من خلال مظاهر متعددة أبرزها –

١– مفهوم التفسير عند بعض العلماء الذين عرّفوه، فقد جعل بعض علماء التفسير من قضية السياق ومراعاته أساسًا من أسس مفهوم التفسير، فقالوا في تعريف التفسير: هو" كشف معاني القرآن وبيان المراد منه سواء كانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع أو بقرائن الأحوال ومعونة المقام " (١) .

٢– العناية بتفسير القرآن بالقرآن: فقد اعتنى المفسرون بتفسير القرآن بالقرآن؛ لأن القرآن سياق واحد له خصائصه، فلا بد من التعامل معه كنص واحد، فسعوا إلى استقراء النصوص وفهم المعنى المراد من خلال سياقاته المتعددة، فمثلًا قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى:٥) يفهم من الآية أن الملائكة تستغفر لمن في الأرض جميعًا بما في ذلك الكفار، ولكن هذه الآية تخصص بسياق آية أخرى، وهي قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر:٧). وفي هذا عناية بسياق النص بمعناه الشامل.

(١) التحبير في علم التفسير للسيوطي صـ٣٨– حققه: د. فتحي عبد القادر فريد– دار العلوم للطباعة والنشر– الرياض – السعودية– ط١– ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.

٣- العناية بتفسير الرسول(ﷺ)؛ لأنه هو المبين للقرآن، وكذلك العناية بتفسير الصحابة بسبب معرفتهم بالأحوال؛ لأنهم تميزوا بمشاهدة قرائن الأحوال التي نزل عليها القرآن وحضورها، وسيتضح ذلك من خلال البحث.

٤- العناية بأسباب النزول: إن العناية بالأسباب التي نزل عليها القرآن إدراك عميق للأثر العظيم لسياقات الأحوال التي نزل عليها القرآن في فهمه، وسيتضح ذلك من خلال البحث.

وعلى هذا فالعلماء قديمًا تنبهوا إلى أهمية السياق في تفسير الآيات القرآنية ومفرداتها حين أشاروا إلى بعض الخصائص التي ينبغي مراعاتها في معرفة تفسير المفردة القرآنية.

وكان السياق موضع عناية اللغويين أيضًا؛ لأن "اللغويين يصفون المعنى المعجمي للكلمة بأنّه متعدد ويحتمل أكثر من معنى واحد، في حين يصفون المعنى السياقي لها بأنّه واحد لا يحتمل غير معنى واحد "[١]. فالمعاني المعجمية ليست هي كلّ شيء يمكننا من خلاله إدراك معنى الكلام أو النص؛ لأن ثمة عناصر لغوية وغير لغوية تساهم بشكل كبير في تحديد المعنى، وهذه العناصر جزء من الكلام الذي لا يمكن الوصول إلى معناه من دونها [٢]. ويتجلّى الاهتمام بالسياق عندهم بصورة خاصة في كتب (الوجوه والنظائر) التي مَنحت السياق أهميّة بالغة في تحديد المعنى المراد؛ ذلك أنّ معاني الألفاظ المشتركة والمتضادّة مُتعدّدة

(١) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د: علي زوين/ صـ١٨٥- مطابع الشؤون الثقافية العامة-بغداد- ط ١٩٨٦م.

(٢) ينظر: علم اللغة (مقدمة القارئ العربي) د/ محمود السعران صـ٢٨٨- دار المعارف- مصر-١٩٦٢م.

ولا يُحدّدها إلاّ السياق الذي تَرد فيه؛ إذ يُعطيها بُعدَها الدَلالي الخاصّ بها بما لا يَدع مجالاً للشكّ والالتباس.

ومما يدل على أهمية السياق أنه لم يخل علم من العلوم العربية والإسلامية من التعرض للسياق من زاوية من الزوايا، فالحديث عن السياق يوجد حيًا فاعلاً في علوم اللغة، والنحو، وأصول الفقه، والفقه، والبلاغة، والنقد، والتفسير، ولذا قرر بعض الباحثين" أن دراسات العلوم العربية والإسلامية التي قامت حول السياق كانت من السبق والعمق معًا بحيث تتفوق على نظيرتها التي قامت في العصر الحديث في المعرفة الغربية "[1].

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين عرفوا السياق وطبقوه، وإنما شاركهم- أيضًا- العلماء الهنود الذين اهتموا بالسياق، وعرفوا أثره في الكشف عن المعنى، وعندما تناول الأوربيون فكرة السياق لم تكن جديدة تمامًا، وإنما كانت استمرارًا لجهود الدرس اللغوي، وللعرب والهنود فضل السبق في ذلك [2].

تعريف السياق في اللغة:

يفهم من معاجم اللغة أن المعنى اللغوي للسياق هو كل ما يدل على حَدْو وتتابع، يقول ابن فارس:" السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ، يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا، وَالسَّيِّقَةُ: مَا اسْتِيقَ مِنَ الدَّوَابِّ "[3]. وقال الزمخشري:

---

(١) السياق وتوجيه دلالة النص، د/عيد بلبع صـ١٢٠-بلنسية للنشر والتوزيع- مصر- ط١-١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: دلالة السياق، د/ ردة الله الطلحي صـ١٦٥- جامعة أم القرى- السعودية-ط١-١٤٢٤هـ.

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ) ١١٧/٣(س و ق) حققق: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

" تساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده "(١). وقال ابن منظور:" تَساوَقَت الإِبلُ تَساوُقًا إِذَا تَتَابَعَتْ... والمساوَقَةُ: المتابعة كَأَنَّ بعضَها يَسُوقُ بَعْضًا"(٢)

السياق اصطلاحاً: عرف السياق في الاصطلاح بأنه: النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، وكل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام (٣).

أنواع السياق: **يفهم مما سبق أن السياق نوعان**-

الأول: ما يتعلق بالمقال، وهو ما يسمى بسياق المقال، وهو السياق اللغوي المتعلق بمصاحبات اللفظ التي تساعد على توضيح المعني من الألفاظ والجمل والتراكيب المستعملة في النص، أي هو:" المستفاد من عناصر مقالية داخل النص "(٤). وعلي هذا فالسياق القرآني اللغوي هو دراسة الآيات مع مراعاة المدلولات اللغوية للكلمات والتراكيب داخل النص .

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري(ت:٥٣٨هـ) ١/ ٤٨٤ (س وق) حققه: محمد باسل عيون السود-دار الكتب العلمية- بيروت - ط١-١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٢) لسان العرب لابن منظور(ت:٧١١هـ) ١٠/ ١٦٦(س و ق) - دار صادر - بيروت-ط٣-١٤١٤هـ.

(٣) ينظر: دور الكلمة في اللغة لاستيفن أولمان صـ٦٢، ترجمة د/ كمال بشر- ط مكتبة الشباب-القاهرة- ١٩٩٢م.

(٤) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د: عبد الفتاح البركاوي صـ٣٠- ط دار المنار- القاهرة- ١٤٠١هـ- ١٩٩١م.

ويمكن تقسيم هذا النوع إلى قسمين -

أولًا: ما قبل النص موضع النظر والتفسير، ويسمى السباق، قال الكفوي:" والسباق بالموحدة ما قبل الشيء، والسياق بالمثناة أعم "[١].

ثانيًا: اللحاق: وهو ما بعد النص موضع النظر والتفسير من الألفاظ والجمل.

وحدود السياق قد تمتد إلى النص المكون لتلك الجملة بما يحويه من جمل مجاورة قبلية وبعدية، وربما يتعدى ذلك إلى فقرة أو فقرات، أو أكبر من ذلك [٢]، كما سيتضح من خلال البحث.

والثاني: السياق الخارجي أو سياق الحال، وهو المتعلق بالظروف والملابسات التي حفت بالنص عند نزوله، وقد عبر عنه الدكتور/ محمد حسن جبل بسياق المقام، وعرفه بقوله: "المقام هو الموقف الذى يقال فيه الكلام، وقد يتمثل هذا الموقف في المكان أو الزمان الذى يقع فيه الكلام، كما قد يتمثل في الأشخاص المتكلمين أو موضوع الكلام "[٣]. وعبر عنه الدكتور/ عبد الفتاح البركاوي بالسياق الخارجي، وعرفه بقوله:" هو المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص" [٤].

فالسياق القرآني: هو علاقة اللفظ مع ما قبله وما بعده من الآيات وما يكسبه من معنى في هذا الموضع أو في موضع آخر، وسبب النزول والجو العام الذي نزلت فيه الآية.

---

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي(ت:١٠٩٤هـ) صـ٥٠٨- حققه: عدنان درويش- محمد المصري- مؤسسة الرسالة-بيروت.

(٢) ينظر: السياق وتوجيه دلالة النص لعيد بلبع صـ١٣٠.

(٣) المعنى اللغوي، دراسة نظرية وتطبيقية، د/محمد حسن جبل صـ٩٣- ط ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٤) دلالة السياق، د/ عبدالفتاح البركاوي صـ٣٠.

ثانياً: التعريف بلفظ الخير ومعانيه العامة

توطئة:

إن الإنسان لا يدرك تمام الإدراك أي قضية حتى يعلم مضمون ما يناقضها من قضايا، وعن طريق هذه الثنائية للأشياء يستطيع الإنسان أن يجمع بين المتضادات ويقابل بين المتناقضات، فتتعاند، وتتصادم، ويتولد من تعاندها وتصادمها واحتكاكها شرارات المعرفة التي تكشف للعقل عن حقيقتين في وقت واحد معًا عند معالجته لحقيقة واحدة، هما: الشيء وضده، وعن هذه الثنائية نشأ هذا التلازم بين الخير والشر، فإذا ذكر الخير ذكر معه الشرّ، وظهرا معًا في مجال الفكر متقابلين، ولعمر بن الخطاب(ﷺ) كلمته المأثورة: من لم يعرف الشرّ جدير بأن يقع فيه.

ولعلّ أكثر الكلمات دورانًا على ألسنة الناس، كلمتا الخير والشر، فما عرض لإنسان أمر، أو وقع له شيء إلا نظر إليه من جانبي الخير والشر، إن هاتين الكلمتين هما ميزان الحياة الذي يقدّر به الإنسان كلّ شيء يأخذه أو يدعه، هكذا تجرى حياة الناس، وهكذا تجيء تصرفاتهم ويقع سلوكهم على حسب ما يشير إليه مؤشر الميزان، من رجحان إحدى الكفتين على الأخرى [1].

ومعايير الناس في الخير تختلف- وهذا أمر طبعي- لاختلاف رغباتهم، وتنوع مطالبهم، فيبدو لبعض الناس في ملذات الدنيا الفانية من طعام وشراب، ومن أولاد ومال وكله إلى زوال، وهذا يوجد- كما سيتضح من خلال البحث- في طلاب الدنيا فقط ممن يكذبون الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ولا يؤمنون بالله ــ تعالى ــ وحده، على حين يراه آخرون في ألوان تعلو بالروح وتسمو بالوجدان

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب(ت:١٣٩٠هـ) ٨٧٦/٩- دار الفكر العربي- القاهرة (د.ت).

من طاعة الله والعمل الصالح، وتقديم كل ما هو نافع لدينه ومجتمعه، وبين هذه الآفاق الصاعدة والآفاق النازلة، درجات تتفاوت على حسب كل فرد أو جماعة.

تعريف لفظ الخير: لفظ الخير في اللغة يدل على العطف والميل، وعليه قالوا الخير ضد الشر؛ لأن كل واحد يميل ويعطف على صاحبه، يقول ابن فارس: " الْخَاءُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلُهُ الْعَطْفُ وَالْمَيْلُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فَالْخَيْرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِهِ... ثُمَّ يُصَرّفُ الْكَلامُ فَيُقَالُ: رَجُلٌ خَيِّرٌ وَامْرَأَةٌ خَيِّرَةٌ: فَاضِلَةٌ " (١).

والخير في الاصطلاح: كل ما يرغبه الناس، يقول الأصفهاني:" الخَيْرُ: ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضدّه: الشرّ. قيل: والخير ضربان: خير مطلق، وهو أن يكون مرغوبًا فيه بكلّ حال، وعند كلّ أحد... وخير وشرّ مقيّدان، وهو أن يكون خيرًا لواحد شرًا لآخر، كالمال الذي ربما يكون خيرًا لزيد وشرًا لعمرو "(٢).

المعاني العامة للفظ الخير: ذكر بعض العلماء معاني عامة للفظ(الخير) في القرآن هي(٣) :

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٢٣٢(خ ي ر).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) صـ٣٠٠- حققه: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، - دمشق -ط١-- ١٤١٢هـ.

(٣) ينظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام (ت:٢٠٠هـ) صـ١٧٤-١٧٦، حققته: هند شلبي- الشركة التونسية للتوزيع١٩٧٩م، واللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي(ت:٧٧٥هـ) ٣/٢٣٤ - حققه: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

الوجه الأول: الخير يعني المال، وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ (البقرة:١٨٠) يعني مالاً، وكقوله:﴿ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ﴾ (البقرة:٢١٥) يعني من مال، ونحوه كثير.

وذكر ابن عطية أن بعض المفسرين قالوا: حيثما ذكر الخير في القرآن فهو المال، وقال: وفي هذا الكلام تحامُلٌ، والذي يشبه أنْ يقال: إنه حيثُما ذُكِرَ الخير فإنَّ المالَ يدْخُل فيه [١]. وعلق الثعالبي على ابن عطية بقوله:" وهذا أيضًا غير ملخَّص، والصواب: أَنَّ الخيرَ أَعمُّ من ذلك كلِّه، وانظر قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧] فإنه يشمل المال وغيره، ونحْوُه : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧]... فههنا لا مدْخَل للمالِ إلا علَى تجوُّز، وقد يكون الخير المرادُ به المال فَقَط وذلك بحَسَب القرائن، كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]"[٢].

الوجه الثاني: الخير يعني الإيمان، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (الأنفال:٧٠) يعني إيمانًا. وقال نوح في سورة هود: ﴿ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ (هود:٣١) يعني إيمانًا.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت:٥٤٢هـ) ١٦٦/٣- حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (ت: ٨٧٥هـ) ٢٨١/٣- حققه: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.

الوجه الثالث: الخير يعني العافية، وذلك كقوله:﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ (الأنعام:١٧) يعني بعافية، ومثلها في سورة يونس : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ (يونس:١٠٧) يعني بعافية.

الوجه الرابع: الخير: الطَّعام، قال تعالى:﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] .

الوجه الخامس: الخير: الظَّفر والغنيمة، كقوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ (الأحزاب: ٢٥) يعني لم يصيبوا ظفرًا ولا غنيمة.

الوجه السادس: الخير: الخيل؛ قال تعالى في قصة نبي الله سليمان(عليه السلام):﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢).

الوجه السابع: الخير: الأجر والثَّواب، وذلك كقوله:﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ (الحج:٣٦) يعني: لكم في البُدن أجر وثواب في نحرها، والصّدقة منها.

الوجه الثامن: الخير يعني الفضل، وذلك كقوله تعالى:﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٨) يعني وأنت أفضل من يرحم، وقال: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين﴾ (المائدة:١١٤) يعني أفضل الرَّازقين، وقال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف:٨٧) يعني أفضل الحاكمين، وكذلك كلُّ شيء في القرآن من نحو هذا.

وقد ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ:" أن لفظ الخير أكثر ما يستعمل في القرآن بمعنى الأفضل، وقد أحصيت من هذا الاستعمال نحو (١٢٥) مرة، ويقترن بلفظ (أم) المعادلة، أو يجيء تمييزًا، أو معطوفًا عليه بأفعل التفضيل"[1]. ونظرًا لكثرة

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ(ت:١٤١٩هـ) ١/ ١١٣ – دار المعارف – القاهرة– ط٧ .

ورود لفظة (خير) في القرآن بمعنى أفضل- فقد ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ أنها أحصت نحو (١٢٥) مرة أتى فيها لفظ الخير بمعنى أفضل- فسأكتفي بتحليل نموذج لما جاء بمعنى أفضل؛ نظرًا لكثرته بما يضيق المقام عن تحليله، ولوضوح السياق في الدلالة على معناه، خصوصًا أن الدكتورة بنت الشاطئ قد وضعت ضوابط لمجيء لفظة خير بمعنى أفضل كما سبق.

- قوله تعالى:﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٦).

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله:﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ فقيل: أي أخف وأهون على الأبدان، يقول ابن قتيبة :" نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها: أي بأفضل منها، ومعنى فضلها: سهولتها وخفتها "(١). وعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلُهُ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ قال: آيَةٌ فِيهَا تَخْفِيفٌ، فِيهَا رُخْصَةٌ، فِيهَا أَمْرٌ، فِيهَا نَهْيٌ (٢).

وقيل: عن ابْنِ عَبَّاسٍ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ قال: خَيْرٌ لَكُمْ فِي الْمَنْفَعَةِ، فلفظ خير في الآية صِفَة تَفْضِيلٍ، وَالْمَعْنَى بِأَنْفَع لَكُمْ أَيُّهَا النَّاس فِي عَاجِلٍ إِنْ كَانَت النَّاسِخَة أَخَفّ، وَفِي آجِلٍ إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية (٣). والمعنى على هذا:

---

(١) غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(ت: ٢٧٦هـ) صـ٦١- حققه: أحمد صقر- دار الكتب العلمية-١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري(ت:٣١٠هـ) ٣٩٩/٢، حققه: د/عبد الله التركي- دار هجر للطباعة- ط١-١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، وتفسير القرآن العظيم لعبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم(ت:٣٢٧هـ) ٢٠٢/١- حققه: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز -السعودية-ط٣-١٤١٩هـ.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ١٩٤/١، والجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي(ت:٦٧١هـ) ٢/ ٦٨- حققه: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة- ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نأت بأنفع لكم منها في الوقت الثاني، وأصلح لحالكُم في النفع وصلاح الحال وكثرة الثواب، فيكون النفع للعباد في الدارين.

نخلص مما سبق أن قوله:﴿ نَأْتِ بِخَيرٍ مِّنْها﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: أي أخف منها، بالترخيص فيها، وهذا معنى قول قتادة.

والثاني: أي خير لكم في المنفعة، وهذا قول ابن عباس، فيكون تأويل الآية: ما نغير من حكم آية فنبدله، أو نتركه فلا نبدله، نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكمًا منها، إما بالتخفيف في العاجل، كالذي كان من نسخ قيام الليل تخفيفًا، وإما بالنفع بكثرة الثواب في الآجل، كالذي كان من نسخ صيام أيام معدودات بشهر رمضان [1].

ويبدو أن الراجح في معني:﴿ نَأْتِ بِخَيرٍ مِّنْها﴾ أي بما هو أنفع وأصلح؛ لأَنَّهُ ــ تَعَالَى ــ يَصْرِفُ الْمُكَلَّف عَلَى مَصَالحِهِ لا عَلَى مَا هُوَ أَخَف عَلَى طِبَاعِهِ. فَإِنْ قِيلَ: لَوْ كَانَ الثَّانِي أَصْلَحَ مِنَ الأَوَّلِ لَكَانَ الأَوَّلُ نَاقِص الصَّلَاحِ فَكَيْفَ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ؟ قُلْنَا: الأَوَّلُ أَصْلَحُ مِنَ الثَّانِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَقْتِ الأَوَّلِ، وَالثَّانِي بِالْعَكْسِ مِنْهُ فَزَالَ السُّؤَالُ [2].

أما من زعم أن قَوْله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها﴾ أن الْخَيْر السهولة، فقد نسخ الأسهل بالأشق، مثل الصَّوْم كَانَ على التَّخْيير بَينه وَبَين الْفِدْيَة، فنسخه بِصَوْم رَمَضَان على الحتم.

---

(١) ينظر: النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي(ت:٤٥٠هـ) ١/١٧١- حققه: السيد عبد المقصود عبد الرحيم- دار الكتب العلمية- بيروت.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ) ٣/ ٦٤١- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٣- ١٤٢٠هـ.

وغير جائز لذي علم ودين أن يتأول بهذا النص تفضيل بعض القرآن على بعض من حيث إنه كلام الله ووحيه وكتابه؛ لأن جميعه كلام الله، وكَلامه لا يَتَفَاضَل، فلا يجوز في كلام الله ــ تعالى ــ أن يقال: بعضه أفضل من بعض، وبعضه خير من بعض؛ لأن القرآن كلام الله ــ جل ذكره ــ ليس بمخلوق وإنما يقع التفضيل بين المخلوقات، فكَلام اللَّهِ وَاحِدٌ وَكُلُّهُ خَيْرٌ [1].

فالتفاضل فيها إنما هو بحسب ما يحصل منها للعباد في المنفعة والثواب، فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر.

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه لمكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ) ٣٩١/١، إشراف: أ.د: الشاهد البوشيخي- الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - جامعة الشارقة- ط١-١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠٩/١.

المبحث الأول

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الله ورسله

خلق الله- تعالى- الخلق وهو غني عنهم، بينما هم- دائمًا- في حاجة إليه، يعطيهم- متى أطاعوه- من الخير الكثير، فهم إذا اتبعوا الرسل- عليهم السلام- في الدعوة إلى الله وإلى الإيمان به وعملوا صالح الأعمال ابتغاء مرضات الله يعطيهم- سبحانه وتعالى- من الخير النافع، ومن العز الدائم في الدنيا والآخرة، ولذا نجد أن (الخير) الوارد- في القرآن الكريم- في حق الله ورسله جاء لائقًا بهم، متسقًا مع منهج الله ــ تعالى ــ وما بعث به الرسل عليهم السلام، وإليك هذه الآيات:

١- قوله تعالي: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(آل عمران: ٢٦).

اختلف العلماء في معني الخير في الآية، فقيل: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ يعني النّصْرة وَالْغَنِيمَة، قاله ابن عباس [١].

(١) ينظر: بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي(ت:٣٧٣هـ) ١/٢٠٤، حققه: د. محمود مطرجي: دار الفكر- بيروت، وزاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت:٥٩٧هـ) ١/٢٧٠، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ.

وقيل: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أَيْ: عزُّ الدُّنيا والآخرة [1]. فتعريف الخير للتعميم، وتقديم الخبر(الجار والمجرور) للتخصيص، أي: بقدرتك الخير كلّه لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضًا وبسطًا حسبما تقتضيه مشيئتُك[2]. فـ(أل) في الخير للاستغراق الشامل، والمعنى: أنت وحدك الذي تملك الخير كله، وتتصرف فيه حسب إرادتك ومشيئتك؛ لأنك على كل شيء قدير.

ولعل السبب في اختلافهم هو السياق المتعلق والمحيط بالظروف والملابسات التي حفت بالنص عند نزوله؛ إذ ذكر العلماء في سبب نزول قوله تعالى:﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ...﴾ ثلاثة أقوال-

أحدها: لما فتح رسول الله (ﷺ) مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قاله ابن عباس.

والثاني: أن النبيّ (ﷺ) سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فنزلت هذه الآية، حكاه قتادة.

---

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي(ت:٤٦٨هـ) ٤٢٦/١- حققه: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون- دار الكتب العلمية، بيروت- ط١- ١٤١٥ه- ١٩٩٤م.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن مصطفى العمادي(ت:٩٨٢هـ) ٢١/٢ - دار إحياء التراث العربي- بيروت.

والثالث: أن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم، فنزلت هذه الآية [1].

فمن ذهب إلي معني الخير في الآية النّصْرة وَالْغَنِيمَة نظر إلي القولين الأولين، ومن ذهب إلي أن معنى الخير في الآية عزُّ الدُّنيا والآخرة نظر إلي القول الثالث.

والسياق اللغوي يرجح المعنى الثاني العام الذي يري أن معني الخير في الآية عزُّ الدُّنيا والآخرة، فقد نص كثير من العلماء علي أن(ال) في الخير تفيد العموم؛ والمعنى بيدك كل الخيرات، يقول ابن عادل:" الألف وَاللامُ فِي (الْخَيْر) يُوجِبَانِ العُمُوم، وَالْمَعْنَى: أنَّ الْخَيْرَات تَحْصُلُ بقدرتك، فقوله:(بِيَدِكَ) لا بِيَدِ غَيْرِكَ... وذَلِكَ الحَصْرُ منَافٍ لِحُصُولِ الْخَيْرِ بِيَدِ غَيْرِه، فثبت دلالة الآيةِ عَلَى أنَّ الْجَمِيع مِنهُ بِخَلْقِه وتكوينه، وَإِيْجَادِهِ وَفَضْلِهِ "[2].

والجملة التعليلية، وهي قوله تعالي:﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عامة، وهي كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكًا لإيتاء الملك ونَزْعه، والإعزار، والإذلال، فالمناسب للمقام عموم الخير، فإنه ما أغرى أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعي، وضعف أتباعه وقلة عددهم، فأمره الله أن يلجأ إلى مالك الملك الذي بيده النصر والإعزاز في الدنيا والآخرة، وأن يذكره بأن الخير كله

---

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) صـ١٠٢ وما بعدها- حققه: كمال بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١١هـ- ولباب التأويل في معاني التنزيل لعلي محمد الشيحي، المعروف بالخازن(ت:٧٤١هـ) ٢٣٥/١-صححه: محمد علي شاهين- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٥هـ.

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٥/ ١٣٢، وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١/ ٢٣٦.

بيده فلا يعجزه أن يعطي نبيه والمؤمنين من السيادة وبسطة السلطنة ما وعدهم، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم، كما قال:﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥).

٢- قوله تعالي:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(الأنعام: ١٧).

اختلف العلماء في معني قوله تعالي:(**بِخَيْرٍ**) ، فنقل بعض العلماء عَنِ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يَقُولُ: بِعَافِيَةٍ [(١)]. وعن ابن عباس أنه النِّعْمَة والغنى[(٢)].

وجمع بعض العلماء في تفسير(الخير) بين العافية والغنى، فقوله:﴿ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يعني من غنى أو صحة ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادرًا على إدامته أو إزالته [(٣)].

وفسر بعض العلماء لفظ الخير في الآية بما هو أعم من ذلك، فجعلوا تفسير الخير بالصحة والغني مجرد تمثيل، وأن الخير هنا هُوَ الخصب والسعَة والنعمة

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٢/٢٧٤، والدر المنثور للسيوطي ٣/٢٥٦.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس-رضي الله عنهما- (ت: ٦٨هـ) صـ١٠٧- جمعه: الفيروزآبادى (ت:٨١٧هـ) دار الكتب العلمية - لبنان.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله الزمخشري(ت:٥٣٨هـ) ٢/١٠- دار الكتاب العربي- بيروت -ط٣-١٤٠٧هـ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت: ٧١٠هـ) حققه: يوسف علي بديوي- دار الكلم الطيب، بيروت- ط١-١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

والرخاء والعافية وغير ذلك [١]، فقوله تعالي:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ كَصِحَّةٍ وَغِنًى وَقُوَّةٍ وَجَاهٍ.

ويبدو أن الخير في الآية لفظ تام العموم؛ حيث قابل بين الضر والخير، فقوله تعالى:﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني بشدة وبلية، والضر اسم جامع لما ينال الإنسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه، وقوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يعني بعافية ونعمة وغير ذلك، فالخير اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك [٢]. ولذا يقول أبو حيان عند تفسيره للآية:" فَسَّرَ السُّدِّيُّ الضُّرَّ هُنَا بِالسَّقَمِ، وَالْخَيْرَ بِالْعَافِيَةِ. وَقِيلَ: الضُّرُّ: الْفَقْرُ، وَالْخَيْرُ: الْغِنَى، وَالْأَحْسَنُ الْعُمُومُ فِي الضُّرِّ مِنَ الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي الْخَيْرِ مِنَ الْغِنَى وَالصِّحَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"[٣].

ومما يدل علي عموم لفظ (الخير) في الآية السياق العدولي(اللغوي)؛ فَالَّذِي يُقَابِلُ الْخَيْرَ هُوَ الشَّرُّ، وَنَابَ عَنْهُ هُنَا الضُّرُّ وعدل عن الشَّرِّ؛ لِأَنَّ الشَّرَّ أَعَمُّ مِنَ الضُّرِّ، فَأُتِي بِلَفْظِ الضُّرِّ الَّذِي هُوَ أَخَصُّ وَبِلَفْظِ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ عَامٌّ؛ تَغْلِيبًا لِجِهَةِ الرَّحْمَةِ [٤].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني(ت:٤٨٩هـ) ٢/ ٤٠٩- حققه: ياسر إبراهيم، وغنيم عباس- دار الوطن- السعودية- ط١-١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ومحاسن التأويل لجمال الدين بن محمد القاسمي(ت:١٣٣٢هـ) ٣٢٦/٤- حققه: محمد باسل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٨ه.

(٢) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢/ ١٠٢، ومحاسن التأويل للقاسمي٣٢٦/٤ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي(ت:٧٤٥هـ) ٤٥٥/٤- حققه: صدقي محمد جميل- دار الفكر- بيروت- ١٤٢٠هـ.

(٤) ينظر: اللباب في علوم الكتاب ٦٢/٨.

وإذا كان المولي ــ سبحانه وتعالي ــ قد عبر بلفظ (الضر) فإن الذي يقابل (الضر) هو (النفع)، وقد عرف الإمام الرَّازِيُّ: الضُّرّ بأنه" اسْمٌ لِلأَلَمِ وَالْحُزْنِ وَالْخَوْفِ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهَا أَوْ إِلَى أَحَدِهَا، وَالنَّفْعُ اسْمٌ لِلَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهِمَا أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا، وَالْخَيْرُ اسْمٌ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ مِنْ دَفْعِ الضُّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ"(١). وعلي هذا فالْخَيْر مَا كَانَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَوْ مَصْلَحَةٌ حَاضِرَةٌ أَوْ مُسْتَقْبَلَةٌ، قَالَ تَعَالَى:﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦) وَقَالَ فِي النِّسَاءِ: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

يتضح مما سبق أن ذَكَر الْخَيْر في مُقَابِلِ الضُّرِّ دُونَ النَّفْعِ يفيد أَنَّ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنَ النِّعَمِ إِنَّمَا يَحْسُنُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ النَّفْع خَيْرًا لَهُمْ بِعَدَمِ تَرْتِيبِ شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ عَلَيْهِ (٢).

ومما يدل- أيضًا- علي عموم لفظ الخير السياق البعدي، وهو قوله تعالي: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حيث عمم الحكم ليندرج تحته كل خير، فاندفاع جميع المضار بقدرته، وكذا حصول جميع الخيرات؛ لأن كل ما عداه فإنما هو تحت قهره، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٧).

٣- قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨) .

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢/ ٤٩٤.

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/ ٢٨٠.

اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْخَيْرِ الَّذِي عَنَاهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ :﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى الآية: ولو كنت أعلمُ متى أموت لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، روي ذلك عن الحسن ومُجَاهِد [(١)].

وذهب كثير من العلماء إلي أن معنى : ﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي: من العمل الصالح، قول لا شك في أنه ليس بصحيح، فهذا التفسير فِيهِ نَظَرٌ؛ لأَنَّ عَمَل رَسُول اللَّهِ(ﷺ) كَانَ ديمة، وَفِي رِوَايَةٍ[كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ][(٢)] فَجَمِيعُ عَمَلِهِ كَانَ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، اللَّهُمَّ إلا أَنْ يَكُونَ المرادُ أَنْ يُرْشِدَ غَيْرَهُ إِلَى الاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ [(٣)].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٦١٦/١٠، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٦٢٩/٥،والنكت والعيون للماوردي ٢٨٥/٢.

(٢) أخرجه مسلم في المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)٥١٥/١- ح/ ١٤١ (كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَابُ جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ) حققه: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٩٥٤م.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت:٧٧٤هـ) ٤٧٣/٣- حققه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت-ط١-١٤١٩هـ، وتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا(ت:١٣٥٤هـ) ٢٨٤/٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٩٠م، والعَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ لمحمد الأمين بن محمد الجكني الشنقيطي(ت:١٣٩٣هـ) ٣٨٥/٤- حققه:خالد بن عثمان، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة-ط٢- ١٤٢٦هـ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغيب، أي متى تقوم السَّاعَةُ لأَخبرتكُمْ بقيامها حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ، يَعْنِي: بِتَكْذِيبِكُمْ ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وقيل: في قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أَوْقَاتَ النَّصْرِ لَتَوَخَّيْتُهَا، أي: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَتَى يَكُونُ لِي النَّصْرُ فِي الْحَرْبِ لَقَاتَلْتُ فَلَمْ أُغْلَبْ (٢).

وقيل: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، مِنَ الْمَالِ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ، أي: الْفَقْرُ (٣). فَالْمُرَادُ بِالْخَيْرِ على هذا القول: الْمَال.

وقيل: قَوْله : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: أي: وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لأَعْدَدْتُ لِلسَّنَةِ الْمُجْدِبَة مِنَ الْمُخْصِبَةِ، وَلَعَرَفْتُ

---

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني٢/ ٢٣٨، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت:٥١٠هـ) ٢٥٧/٢، حققه: عبد الرزاق المهدي-دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١-١٤٢٠هـ.

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥/ ٢٤١، وفتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني(ت:١٢٥٠هـ) ٢/ ٣١٢ ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت- ط١- ١٤١٤هـ.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٦٢٩/٥، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي(ت:٤٢٧هـ) ٤/ ٣١٤ - حققه: أبو محمد بن عاشور: دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

الغَلاءَ مِنَ الرُّخْصِ، وَاسْتَعْدَدتُ لَهُ في الرُّخْصِ[1]، وقَوْله: {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} وَمَا مَسَّنِيَ الضُّرُّ. وإلى هذا ذهب عامة أهل التأويل[2].

والذي يدل علي هذا القول سبب نزول الآية، قَالَ ابْنُ عَبَّاس: إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَلا يُخْبِرُكَ رَبُّكَ بِالسِّعْرِ الرَّخِيصِ قَبْلَ أَنْ يَغْلُوَ فَتَشْتَرِي به وَتَرْبَحَ فِيهِ عِنْدَ الغلاء، وبالأرض الَّتِي يُرِيدُ أَنْ تَجْدِبَ فَتَرْتَحِلَ مِنْهَا إِلَى مَا قَدْ أَخْصَبَتْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ [3]. وقد رجح ابن كثير هذا الرأي فقال:" وَالأَحْسَنُ في هذَا مَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ"[4].

ويبدو أن تفسير(الخير) بالعمل الصالح أمر فيه نظر كما سبق.

والرسول(ﷺ) أخبر أنه لو كان يَعْلَمُ الغَيْبَ لعمل بحَسَب ما يأتي، واستعد لكلِّ شيءٍ استعداد مَنْ يعلم قَدْرَ ما يَسْتَعِدُّ له، وهذا لفظ عام في كل شيء، وإذا كانت الآية وردت في سياق خاص- وهو ما ذكره ابن عباس، من معرفة السَّنَةِ الْمُجْدِبَةِ مِنَ الْمُخْصِبَةِ- إلا أن الخير في الآية يعم هذا وغيره، فالأولي تفسير(الخير) في الآية بالمنافع، أعني المنافع الدنيوية، فالْخَيْرُ مَا يَرْغَبُ النَّاسُ فِيهِ مِنَ مَنَافِعِ الدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَا، وَدَفْعِ آفَاتِهَا وَمَضَرَّاتِهَا، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا يَتَّصِلُ بِالْخِصْبِ وَالْجَدْبِ وَالأَرْبَاحِ، فالمراد وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ- في مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِي فِي الدُّنْيَا- لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ كَالْمَالِ وغيره من الأمور الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ

(١) ينظر: جامع البيان للطبري١٠/ ٦١٦، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٤٣٤/٢.

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد بن محمود الماتريدي(ت:٣٣٣هـ) ١٠٩/٥- حققه: د/ مجدي باسلوم- دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان- ط١-١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٢٣٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٥٦/٢، ولباب التأويل للخازن ٢٧٩/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٧٣.

مِنْ عُسْرَةٍ وَغَلاءٍ وَتَغَيُّرِ الأَحْوَالِ، وَلَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ الَّذِي يُمْكِنُ الاحْتِيَاطُ لِدَفْعِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ، كَشِدَّةِ الْحَاجَةِ [1].

ومما يدل علي أن المراد(بالخير) في الآية منافع الدنيا السياق البعدي؛ حيث إنه تعالى قابل الاستكثار من الخير بقوله: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهذا يدل علي أن الخير هو منافع الدنيا، فهو لم يبعث للاهتمام بمنافع الدنيا، بل بعث للبشارة والنذارة.

وعلى هذا فلفظ الخير في الآية يراد به عموم منافع الدنيا، ويدخل فيه ما قيل في سبب النزول من أنه معرفة السَّنَة الْمُجْدِبَة مِنَ الْمُخْصِبَةِ دخولًا أوليًا، ويشمل-أيضًا- عموم المنافع الدنيوية؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٤- قوله تعالي: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ (الأنبياء).

اختلف المفسرون في معني(الخيرات) في قوله:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوة [2].

وسياق الآية والآيات التي قبلها تتحدث عن أنبياء الله(إِبْرَاهِيم، وَلُوط، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ) فجعلناهم: أي صيرناهم، وأَئِمَّةً: أي: قُدْوَة لغَيْرهمْ، يَهْدُونَ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٥/ ٤٢٦، وتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ٤٢٦/٩.

(٢) ينظر: التَّفْسير البَسِيط لعلي بن أحمد الواحدي(ت:٤٦٨هـ) ١٥/ ١٢٨، تحقيق: لجنة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي- السعودية- ط١-١٤٣٠هـ، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣/ ٢٠١.

بِأَمْرِنا، أي: يُرْشِدُونَ النَّاسَ إلى الدين، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، أَيْ خَصَصْنَاهُمْ بِشَرفِ النُّبُوَّةِ؛ لأَنَّ الإِيحَاءَ هُوَ التَّنْبِئَة، يقول الرازي:"﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَصَّهُمْ بِشَرَفِ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَى الأَب... وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَهُمْ أَوَّلاً بِالصَّلاحِ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَرَاتِبِ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّه ــ تَعَالَى ــ ثُمَّ تَرَقَّى فَوَصَفَهُمْ بِالإِمَامَةِ، ثُمَّ تَرَقَّى فَوَصَفَهُمْ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ"[1].

وقيل: وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، يعني: بالدعاء إلى الله ــ تعالى ــ أي الدعاء إلي قول لا إله إلا الله [2]. وهذا القول قريب من الأول.

وقيل: وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، يعنى أمرناهم بالأَعْمَال الصَّالحة، قاله مقاتل[3]. أي: أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم، وأصله أن يفعلوا الخيرات، ثم فعل الخيرات، وَإِقام الصَّلاةِ وَإِيتاء الزَّكاةِ، وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وشرفه [4].

هذا ولا تعارض في تفسير(الخير) بهذه المعاني في الآية، فيمكن الجمع بينها، وأن يكون الخير يجمعها، بمعني أن يوحي إليهم شرائع النبوة مع الحث

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٢/ ١٦١.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٧٣، وبحر العلوم للسمرقندي ٢/ ٤٣٣.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان لمقاتل بن سليمان البلخي(ت:١٥٠هـ) ٨٦/٣، حققه: عبد الله محمود شحاتة – دار إحياء التراث – بيروت – ط١– ١٤٢٣هـ، وتفسير يحيى ابن سلام ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة (ت:٢٠٠هـ) ٣٢٦/١– حققه: د/ هند شلبي– دار الكتب العلمية، بيروت– ط١– ١٤٢٥هـ– ٢٠٠٤م.

(٤) ينظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد ابن المهدي ابن عجيبة (ت:١٢٢٤هـ) ٣/ ٤٧٩– حققه: أحمد عبد الله القرشي– الناشر: د/حسن عباس زكي– القاهرة– ١٤١٩هـ.

علي ما تدعو إليه هذه الشرائع فَقَوله:﴿ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ﴾ مَعْنَاهُ: الْعَمَل بالشرائع، أي بشرائع الأنبياء [1]، أي أن يعملوا بالشرائع هم وأتباعهم[2]، بمعني أن يحثوا الناس ويدعوهم إلي فعل الخير، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا شامل لجميع الخيرات كلها، من حقوق الله، وحقوق العباد، فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم، يقول الطاهر بن عاشور:﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ فَذَلِكَ إِقَامَةُ شَرَائِعِ الدِّينِ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلاتِ، وَقَدْ شَمِلَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ وفِعْل الْخَيْراتِ مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى الْخَيْراتِ، وَيَتَعَيَّنُ أَنَّهُ مُضَافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ؛ لأَنَّ الْخَيْرَاتِ مَفْعُولَةٌ وَلَيْسَتْ فَاعِلَةً، فَالْمَصْدَرُ هُنَا بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ؛ لأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ مَفْعُولُهُ، وَأَمَّا الْفَاعِلُ فَتَبَعٌ لَهُ، أَيْ أَنْ يَفْعَلُوا هُمْ وَيَفْعَلَ قَوْمُهُمُ الْخَيْرَاتِ حَتَّى تَكُونَ الْخَيْرَاتُ مَفْعُولَةً لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، فَحَذَفَ الْفَاعِلَ لِلتَّعْمِيمِ مَعَ الاخْتِصَارِ لاقْتِضَاءِ الْمَفْعُولِ إِيَّاهُ "[3].

٥- قوله تعالي: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

يكاد يجمع العلماء علي أن معني لفظ ﴿ الْخَيْرَاتِ﴾ في الآية التي معنا: ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخيرَاتِ﴾ يسارعون إِلَى الطَّاعَات، أي يبادرون إلي عَمَلِ

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٣/ ٣٩٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ٢٩٧.

(٢) ينظر: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي(ت:١٣١٦هـ) ٢/٥٥- حققه: محمد أمين الصناوي- دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤١٧هـ.

(٣) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور(ت:١٣٩٣هـ)١٧/١١٠- الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤هـ.

القُرُبات وَفِعْل الطَّاعَاتِ وأداء فرائضه تعالى والعمل بما يقرب إليه [١]. يقول الإمام مقاتل:" إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ، يعني أعمال الصالحات "[٢].

ولعل التعبير بلفظ ﴿ يُسَارِعُونَ﴾ يدل علي أنهم كانوا يبادرون إلي الخيرات ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها.

والسياق اللغوي يدل علي تفسير(الخيرات) بما سبق؛ فجملة ﴿ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ الضمير عائد إلى زكريا، وزوجه، ويحيى، أو الأنبياء المذكورين، فيكون تعليلًا لما فصل من فنون إحسانه ــ تعالى ــ المتعلقة بهم مثل إيتاء موسى وهارون الفرقان، وتبريد النار وإطفائها لإبراهيم، وإنجاء لوط مما نزل بقومه، وإنجاء نوح ومن كان معه في السفينة من أذى القوم وكرب الطوفان، وغير ذلك مما تفضل به على الأنبياء السابقين، أي: إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم، وأسعفناهم فيما أمَّلوا لمبادرتهم أبواب الخير والطاعات، ومسارعتهم إلى تحصيلها، مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير كله، وهو السر في إيثار كلمة(في) على كلمة(إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [٣]. فالآية في مقام التعليل لما تفضل به الله- تعالى- عليهم،

---

(١) ينظر: تنوير المقباس صـ٢٧٥، والوسيط في تفسير القرآن للواحدي ٣/٢٥٠، وتفسير القرآن لابن كثير ٣/ ٣٧٠.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/٩١، وينظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٣٩.

(٣) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي ٧/٢٢٠، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)٩/٨٣- حققه: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٥هـ.

فالأعمال الصالحة علة لإنعام الله-تعالى- عليهم، وأيضًا التعبير بلفظ (في) المشعر بكونهم مطبوعين على فعل الخيرات، وكذلك التعبير بلفظ (يسارعون) وما يوحي به من معنى المبادرة، يقول الطاهر بن عاشور:" ﴿ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِلْجُمَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَمَا أُوتُوهُ مِنَ النَّصْرِ، وَاسْتِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ، وَالإِنْجَاءِ مِنْ كَيْدِ الأَعْدَاءِ، وَمَا تَبِعَ ذَلِكَ، ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً﴾ فَضَمَائِرُ الْجَمْعِ عَائِدَةٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ، وَحَرْفُ التَّأْكِيدِ مُفِيدٌ مَعْنَى التَّعْلِيلِ وَالتَّسَبُّبِ، أَيْ مَا اسْتَحَقُّوا مَا أُوتُوهُ إلا لِمُبَادَرَتِهِمْ إِلَى مَسَالِكِ الْخَيْرِ وَجِدِّهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا، وَأَفَادَ فِعْلُ الْكَوْنِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ دَأْبَهُمْ وَهَجِيرهمْ، وَالْمُسَارَعَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلْحِرْصِ وَصَرْفِ الْهِمَّةِ وَالْجِدِّ لِلْخَيْرَاتِ، أَيْ لِفِعْلِهَا، تَشْبِيهًا لِلْمُدَاوَمَةِ وَالاهْتِمَامِ بِمُسَارَعَةِ السَّائِرِ إِلَى الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ الْجَادِّ فِي مَسَالِكِهِ "(١).

يتضح مما سبق أن المسارعة في فعل الخير- وهي فعل الطاعات وعمل الصالحات- سبب لقبول الدعاء، ولذلك فالسياق هنا يبين أن الخيرات هنا هي الطاعات.

٦- قوله تعالي: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤).

اختلف العلماء في معني الخير في قوله تعالي: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ -

فقيل: يحتمل أن يريد إني فقير من الدنيا لأجل ما أَنْزَلْتَ إليَّ من خير الدِّين وهو النجاة من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، والغرض منه

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٧/ ١٣٦.

إظهار التبجح والشكر على ذلك، وليس الغرض التعريض لما يطعمه ولا التشكي والتضجر بل إظهار الشكر على ذلك [1].

وقيل: الخير في قوله تعالي: ﴿ مِنْ خَيْرٍ﴾: الطعام، وروي عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالي: ﴿ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال: ما سأل إلا الطعام[2] وبنحو هذا قال مُجَاهِد [3]. ويدلل الطبري علي هذا الرأي بما قاله أهل التأويل، فيقول:" إِنَّ الْخَيْرَ الَّذِي قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ مُحْتَاجٌ، إِنَّمَا عَنَى بِهِ شَبْعَةً مِنْ طَعَامٍ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ ... عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا هَرَبَ مُوسَى مِنْ فِرْعَوْنَ أَصَابَهُ جُوعٌ شَدِيدٌ، حَتَّى كَانَتْ تُرَى أَمْعَاؤُهُ مِنْ ظَاهِرِ الصِّفَاقِ؛ فَلَمَّا سَقَى لِلْمَرْأَتَيْنِ وَأَوَى إِلَى الظِّلِّ، قَالَ: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾... عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ قَالَ: وَرَدَ الْمَاءَ وَإِنَّهُ لَيُتَرَاءى خُضْرَةُ الْبَقْلِ فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قَالَ:

---

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٤٠٢/٣،ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥٨٩/٢٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي(ت:٦٨٥هـ) ١٧٥/٤- حققه: محمد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤١٨هـ ومدارك التنزيل للنسفي ٢/ ٦٣٧.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٣٢٥، وتفسير مقاتل بن سليمان ٣٤١/٣، وتفسير يحيى بن سلام ٥٨٦/٢، وتفسير القرآن العزيز لمحمد بن عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين(ت:٣٩٩هـ) ٣/ ٣٢٢- حققه: أبو عبد الله حسين عكاشة، ومحمد مصطفى الكنز- الفاروق الحديثة – القاهرة- ط١- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: تفسير مجاهد لأبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي(ت:١٠٤هـ) صـ ٥٢٧، حققه: د/محمد عبد السلام أبو النيل- دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر- ط١-١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

شَبْعَة... قَالَ هَذَا وَمَا مَعَهُ دِرْهَمٌ وَلا دِينَارٌ...عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ بِجَهْدٍ...عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ مُوسَى قَالَهَا وَأَسْمَعَ الْمَرْأَتَين " [1].

وقد رَوَى جَمِيع المفسرين أنَّه طلبَ في هذا الكلام الطَّعَام لجوعه [2]، ولذلك حملَه الأكثرونَ على الطعام بمعونة المقام [3].

ويرجح دلالة الخير علي الطعام في الآية السياق اللغوي(الاشتقاقي)، يقول المظهري:" وجاز أن يكون أنزلت مشتقًا من النزل بضم النون والزاء، وهو ما يعدّ للنازل من الزاد، يقال: أنزلت فلانًا، أي: أضفته، والمعنى: فقير محتاج سائل لما تعد لي من الطعام "[4]. ومما يدل-أيضًا- علي أن المراد بالخير في الآية الطعام السياق الحالي، فقد أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله(ﷺ): [لما سقى موسى للجاريتين، ثم تولى إلى الظل، فقال: رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير، إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر][5].

(١) جامع البيان للطبري ١٨/ ٢١٥ وما بعدها، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/ ٥٥١٧.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ١٣٢/٤، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٧٥/٤، والجواهر الحسان للثعالبي ٢٦٨/٤.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ٩، ومحاسن التأويل للقاسمي ٥١٨/٧ وما بعدها.

(٤) التفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري(ت: ١٢٢٥) ٧/ ١٥٦- حققه: غلام نبي التونسي- مكتبة الرشدية – باكستان- ١٤١٢هـ.

(٥) لم أعثر علي تخريجه، والحديث موجود في الدر المنثور للسيوطي ٦٠٤/٦.

أما من ذهب إلي أن الخير في الآية هو خير الدِّين وهو النجاة من الظالمين، بناء علي أن موسي(ﷺ) أَسْمَع الْمَرْأَتَينِ طَلَب الطَّعَام، وَذَاكَ لا يَلِيقُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ الْبَتَّةَ، فقد ذهب أكثر المفسرين إلي أن موسي(ﷺ) إنما قال ذلك في نفسه مع ربه وهو اللائق به، وأن كون موسي رفع به صوته لإسماع المرأتين وطلب الطعام هذا لا يليق بموسى عليه السلام [١]، وهو خلاف المأثور الذي عليه الجمهور، ولا يخلو أيضًا عن بعد [٢] فهذه الرواية ضعفت بأن هذا نوع من الدناءة وضعف اليقين بالله فلا يليق بالنبي [٣].

وأري أن تفسير الخير في الآية بخلاف الطعام، وهو النجاة من الظالمين وما أنعم عليه من النبوة والشرائع أليق بحال النبوة، فيكون المعنى: رب بسبب ما أنزلت إليّ من خير الدِّين صرت فقيرًا في الدنيا، فقد كان عند فرعون في غنى وثروة فرضى بهذا البدل شاكرًا، ويعارض تفسير الخير هنا بالطعام أنَّهُ ــ عَلَيْهِ السَّلام ــ قد بَقِيَ مَعَهُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا قَدَرَ بِهَا عَلَى حَمْلِ ذَلِكَ الدَّلْوِ الْعَظِيمِ الذي لا يحمله إلا الرجال الأقوياء، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِهِمَّتِهِ الْعَالِيَةِ أَنْ يَطْلُبَ الطَّعَامَ [٤]، وقد

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٥/ ٢٣٨، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني(ت:٩٧٧هـ) ٣/٩٢- مطبعة بولاق- القاهرة- ١٢٨٥هـ.

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي ١٠/ ٢٧٣.

(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري(ت:٨٥٠هـ) ٥/ ٣٣٨ - حققه: الشيخ زكريا عميرات- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٦هـ.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٤/ ٥٨٩.

قَالَ الرسول(ﷺ):[لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي قُوَّةٍ سَوِيٍّ][1] وقد روي أن الفتاة حين قالت له:" ليجزيك كره ذلك، ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا "[2]. كما أنه حين ذهب لشعيب وحكى له قصته قال له شعيب: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٥)﴾ مما يدل على أنه كان شغله الشاغل النجاة من القوم الظالمين.

وَمما يدل على تفسير الخير بما سبق أنه قَدْ أَعْقَبَ إِيوَاءَهُ إِلَى الظِّلِّ بِمُنَاجَاتِهِ رَبَّهُ إِذْ قَالَ: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ حيث إنه لَمَّا اسْتَرَاحَ مِنْ مَشَقَّةِ السَّقْيِ لِمَاشِيَةِ الْمَرْأَتَيْنِ، وَوَجَدَ بَرْدَ الظِّلِّ تَذَكَّرَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ نِعَمًا سَابِقَةً أَسْدَاهَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ نَجَاتِهِ مِنَ الْقَتْلِ وَإِيتَائِهِ الْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ تَبِعَةِ قَتْلِ الْقِبْطِيِّ، وَإِيصَالِهِ إِلَى أَرْضٍ مَعْمُورَةٍ بِأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ فَيَافِيَ وَمَفَازَاتٍ، تَذَكَّرَ جَمِيعَ ذَلِكَ وَهُوَ فِي نِعْمَةِ بَرْدِ الظِّلِّ وَالرَّاحَةِ مِنَ التَّعَبِ فَجَاءَ بِجُمْلَةٍ جَامِعَةٍ لِلشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ وَهِيَ: ﴿ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وَالْفَقِيرُ: الْمُحْتَاجُ، وَالْخَيْرُ: مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمُلاءَمَةٌ لِمَنْ يَتَعَلَّقُ هُوَ بِهِ، فَمِنْهُ خَيْرُ الدُّنْيَا، وَمِنْهُ خَيْرُ الآخِرَةِ الَّذِي قَدْ يُرَى فِي صُورَةِ مَشَقَّةٍ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالْعَوَاقِبِ، وَقَدْ أَرَادَ النَّوْعَيْنِ كَمَا يَرْمُزُ إِلَى ذَلِكَ التَّعْبِيرُ عَنْ إِيتَائِهِ الْخَيْرَ بِفِعْلِ أَنْزَلْتَ الْمُشْعِرِ بِرِفْعَةِ الْمُعْطَى، فَأَوَّلُ ذَلِكَ إِيتَاء الْحِكْمَةَ وَالْعِلْمِ، وَمِنَ الْخَيْرِ إِنْجَاؤُهُ مِنَ الْقَتْلِ، وَتَرْبِيَتُهُ الْكَامِلَةُ فِي بِذْخَةِ الْمُلْكِ وَعِزَّتِهِ، وَحِفْظه مِنْ أَنْ تَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ عَقَائِدُ الْعَائِلَةِ الَّتِي

(١) أخرجه أبو داود(ت:٢٧٥هـ) في سننه ٣/٧٦-ح/١٦٣٤(كتاب الزكاة: باب من يعطى من الصدقة، وحدُّ الغنى) حققه: شعَيب الأرنؤوط - محمَّد كامِل قره بللي- دار الرسالة العالمية-ط١-١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٥/ ٣٣٨.

رُبِّيَ فِيهَا فكَانَ مُنْتَفِعًا بِمَنَافِعِهَا مُجَنَّبًا رَذَائِلَهَا وَأَضْرَارَهَا، وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ جَعَلَ نَصْرَ قَوْمِهِ عَلَى يَدِهِ، وَأَنْ أَنْجَاهُ مِنَ الْقَتْلِ الثَّانِي ظُلْمًا، وَأَنْ هَدَاهُ إِلَى مَنْجًى مِنَ الأَرْضِ، وَيسر لَهُ التعرف بِبَيْتِ نُبُوءَةٍ، وَأَنْ آوَاهُ إِلَى ظِلٍّ، وَأَحْسَنُ خَيْرٍ لِلْغَرِيبِ وُجُودُ مَأْوًى لَهُ يَطْعَمُ فِيهِ وَيَبِيتُ، وَزَوْجَةٌ يَأْنَسُ إِلَيْهَا وَيَسْكُنُ، فَكَانَ اسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُ بِأَنْ أَلْهَمَ شُعَيْبًا أَنْ يُرْسِلَ وَرَاءَهُ لِيُنْزِلَهُ عِنْدَهُ وَيُزَوِّجَهُ بِنْتَهُ، كَمَا أَشْعَرَتْ بِذَلِكَ فَاءُ التَّعْقِيبِ فِي قَوْلِهِ فَجاءَتْهُ إِحْداهُما [1].

٧- قوله تعالي: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ (ص) .

اختلف العلماء في معني(الخير) في الآية على ثلاثة تأويلات أحدها: حب الدنيا. و﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ فيه وجهان: قيل: عن صلاة العصر، قاله علي(ﷺ). وقيل: عن ذكر الله، قاله ابن عباس[2].

الثاني: يعني حب المال، قاله ابن جبير والضحاك. **الثالث**: حب الخيل قاله قتادة والسدي[3].

وأكْثر الْمُفَسّرين على أَنَّ(الخير) فِي هَذِه الآيَة الْخَيل، والعرب تعاقب بين اللام والراء فتقول: ختلت الرجل وخترته أي: خدعته، وتسمي العرب الخيل:

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٠/ ١٠٢.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥/٩٢، وتفسير القرآن للسمعاني٤/ ٤٣٩.

(٣) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣/١٦٦، وإيجاز البيان عن معاني القرآن لمحمود ابن أبى الحسن النيسابوري (ت:٥٥٠هـ) ٢/٧١٢- حققه: د/ حنيف حسن القاسمي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط١- ١٤١٥ه.

الخير، يقول الفراء:" ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يقول: آثرت حُبّ الخيل، والخير فِي كلام العرب: الخيل"[(١)]. والنبي(ﷺ) سمّى زيد الخيل(الطَّائِي): زيد الخير، وإنما سميت الخيل الخير؛ لما فِيهَا من الْمَنَافِع، ولتعلق الخير بها، فقد جاء في الحديث أنه(ﷺ) قال: [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة][(٢)] [(٣)].

وقبل البدء في ترجيح معني من هذه المعاني، وأثر السياق في ذلك، نبدأ بذكر قصة الآية الكريمة علي ما جاءت في كتب التفسير:

ما زال السياق في ذكر إفضال الله على داود، حيث قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ فذكر ــ تعالى ــ أنه وهبه سليمان، وأثنى على سليمان بأنه نعم العبد لله، وعلل لتلك الأفضلية بقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الأوبة والرجوع إلى الله ــ تعالى ــ بالاستغفار والتوبة عند الغفلة والنسيان العارض للعبد، وأشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أي الخيل القوية على السير التي إذا وقفت تأبى أن تقف على أربع كالحمير بل تقف على ثلاث وترفع الرابعة، والجياد هي السريعة العدو، واختلف المتأولون في قصة هذهِ الخيل المعْرُوضَة على سليمان(عليه السلام) فقال الجمهور: إنّ سليمان عُرِضَتْ عليه آلافٌ مِنَ الخَيْلِ تَرَكَهَا أَبُوهُ، وقالت فرقة: كانت خيلاً أخرجتها الشياطين له

---

(١) معاني القرآن للفراء(ت:٢٠٧هـ) ٢/٤٠٥- حققه: أحمد النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر- ط١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٤٩٣-ح/٩٨(كِتَابُ: الْإِمَارَةِ، بَابُ: الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج(ت:٣١١هـ) ٤/ ٣٣٠- حققه: عبد الجليل عبده شلبي-عالم الكتب- بيروت-ط١-١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، وغريب القرآن للسجستاني(ت:٣٣٠هـ) صـ٧٦- حققه: محمد أديب جمران- دار قتيبة- سوريا- ط١-١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

من البحر وكانت ذوات أجنحة. وقال ابن عباس في رواية الكلبي: إن أهل دمشق من العرب، وأهل نَصِيبِينَ جمعوا جموعًا، وأقبلوا ليقاتلوا سليمان، فقهرهم سليمان، وأصاب منهم ألف فرس، فأُجْرِيَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ عِشَاءً، فَتَشَاغَلَ بجريها وَمَحَبَّتِهَا، حتى فَاتَهُ وَقْتُ صَلاَةِ العَشِيِّ، قال قتادة: صلاة العصر، وَقِيلَ: بَلْ كَانَتْ تِلْكَ الصَّلاَةُ نَافِلَةً فَشُغِلَ عَنْهَا، وَكَانَ سُلَيْمَانُ(عَلَيْهِ السَّلام) رَجُلاً مَهِيبًا، فَلَمْ يُذَكِّرْهُ أَحَدٌ مَا نَسِيَ مِنَ الْفَرْضِ أَوِ النَّفْلِ، فَأَسِفَ لِذَلِكَ وَقَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الخَيْلَ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوق وَالأَعْنَاق، قال عامة المفسرين: المراد مِنْهُ أَنه قطع عراقيبها وأعْنَاقها بالسَّيْفِ، حتى خرّ منها تسعمائة فرس، وهي التي كانت عرضت عليه، وبقيت مائة فرس لم تعرض عليه، فما كان في أيدي الناس الآن من الجياد فهو من نسلها، وَهَذَا مَرْوِيّ عَن ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة. والضميرُ في ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أي: الخيل المعروضة، وقيل: الضمير يرجع للشمس، قال الرازي: وهذا بعيد لوجوه ذكرها، والضميرُ في ﴿ تَوارَتْ﴾ قيل: للشمس، وإن كَانَ لَمْ يَتَقَدَّم لَهَا ذِكْرٌ؛ لأنَّ المعنى يَقْتَضِيهَا، وأيضاً فَذِكْرُ العَشِيِّ يَتَضَمَّنُهَا، وقيلَ: ﴿ حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ﴾ أَي: الخيلُ دَخَلَتْ إصْطَبْلاَتِهَا [1].

وبعد هذا العرض يمكن القول أن الراجح في تفسير لفظ (الخير) في الآية هو أَنَّهَا الْخَيل، وعلى ذلك أَكْثر الْمُفَسّرين [2]، كما أن سياق الحال يدل علي ذلك فقد قَرَأَ ابْن مَسْعُود: ﴿ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ بِاللام [3]، كما أن السياق اللغوي يدل علي أن

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣/ ١٦٦وما بعدها، ومعالم التنزيل للبغوي ٦٧/٤ وما بعدها، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤/ ٥٠٣ وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٩٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٤/ ٤٣٩.

(٣) القراءة وجدتها في: النكت والعيون للماوردي٥/٩٢، وتفسير القرآن للسمعاني ٤٣٩/٤.

الخير هنا: الخيل، وهو قوله ــ تعالي ــ: ﴿ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾؛ فهما وصفان للفرس في حال السكون(بالنسبة للأولى) والحركة(بالنسبة للثانية)، إذ يقال: صَفَنَ الفَرَسُ يَصْفِنُ صُفُونًا: قامَ على ثَلاثِ قوائم وطَرَفِ حافِرِ الرَّابعةِ دُونَ قيْدٍ بيدٍ أَو رجْلٍ، وقالَ أَبو زَيْدٍ: صَفَنَ الفَرَسُ: قامَ على طَرَفِ الرَّابعَةِ. وَفِي الصِّحاحِ: الصافِنُ مِن الخَيْلِ: القائمُ على ثلاثِ قوائمَ وَقد أَقامَ الرابعَةَ على طَرَفِ الحافِرِ. وَفِي التنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعَشِيِّ الصافِناتُ الجِيادُ﴾ (١). وفي المقاييس:" وَالْجَوَادُ: الْفَرَسُ الذَّرِيعُ وَالسَّرِيعُ، وَالْجَمْعُ جِيَادٌ، قَالَ اللَّهُ ــ تَعَالَى ــ: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾"(٢). وعلي هذا فالخيل وُصِفت بوصفين: أولهما: الصَّافِنَاتُ. وَالصِّفة . والثانية: الْجِيَادُ، والمقصودُ وَصَفُها بالحسن حالتي وقوفها وحركتِها، يعني أَنَّها إذا وقفت كانت سَاكنةً مُطمئنةً في مواقفها على أَحْسن الأشكال، فإذا جَرتْ كانت سِراعًا في جريها، فَإِذَا طُلِبَتْ لَحِقَتْ، وَإِذَا طُلِبَتْ لم تُلْحَق، وتلك من علامات خفَّتِه الدَّالة على كَرم أصل الفرس وَحُسْن خلاله، والخيل تمدح بالسكون في الموقف كما تمدح بالسرعة في الجري. كما أن قوله تعالي: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ يدل علي أن الخير هنا الخيل.

(١) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري(ت:٣٩٣هـ) ٦/ ٢١٥٢ (ص ف ن) حققه: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ولسان العرب لابن منظور ٢٤٨/١٣ (ص ف ن).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٤٩٣ (ج و د).

المبحث الثاني

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الإنسان عموماً

الإنسان بفطرته مجبول على حب كل ما هو خير، حريص عليه بأي وسيلة، ويبذل قصارى جهده في الوصول إليه، وهو بطبعه متسرع وعجول، قد يطلب الخير فيما هو شر له، ولذا تجده- دائمًا- في جزع وهلع إلا من رحم الله، من هنا جاء لفظ الخير الوارد في حق الإنسان في القرآن ملائمًا لفطرته وطبعه، وإليك هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس: ١١)

في هذه الآية الكريمة يُخبرُ الله ــ تَعَالَى ــ عَنْ حِلْمِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ لا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلادِهِمْ فِي حَالِ ضَجَرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا لا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ لُطْفًا وَرَحْمَةً، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لأَنْفُسِهِمْ أَوْ لأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالنَّمَاءِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أَيْ: لَو اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ [١].

وقيل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ هم القوم الذين تعجبوا من تخصيص الله ــ تعالى ــ لمحمد بالنبوة، وهم الذين لا يرجون لقاءَ الله ــ تعالى ــ لإنكارهم البعثَ وما يترتَّبُ عليهِ من الحساب والجزاءِ، أشير إلى بعض من عظائمِ معاصيهم المتفرّعة على ذلك، وهو استعجالهم بما أُوعدوا به من العذاب تكذيبًا واستهزاءً، فإنهم كانوا يقولون: اللهم إِن كَانَ هَذا هُوَ الحقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٢٢٠.

السماءِ أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [1]. فقد ذكر بعضهم أنها نزلت في النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ حين تمنى نزول العذاب فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ أَهْلُ مَكَّةَ، وَإِنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ [2].

علي ما سبق يرى بعض العلماء أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم، وأن الآية الكريمة تحكى لونًا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم. وَقِيلَ: الآيَةُ خَاصَّةٌ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ، فقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ معناه: ولو يعجل الله لِلْكَافِرِ الْعَذَابَ عَلَى كُفْرِه كَمَا عَجَّلَ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ لَعَجَّلَ له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة. فيكون الخير على هذا الوجه خاصًا بالكافر، وعلى الوجه الأول عامًا في المسلم والكافر [3].

ويبدو لي أن كون لفظ الناس للجنس أولى، ويدخل فيه المشركون دخولًا أوليًا؛ لأن الكلام كان على إبطال شُبْهَة المشركين وكانوا الْمُسْتَحِقِّينَ لِلشَّرِّ؛ لذلك كَانُوا أَوَّل من يتبادر من عموم النَّاس، كما دل عليه السياق البعدي وهو قوله: ﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، كما أنه لا توجد قرينة تمنع من إرادة عموم الجنس، وحتى لو صح ما قيل من أن الآية نزلت في النضر ابن الحارث فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآيَةَ تعمُّ الْمُسْلِمَ وَالْكافر كَمَا يُشعرُ بِهِ لَفْظُ الناس؛ فقد جاء مصرحًا به، وَيُروىَ أَنَّ النَّبِيَّ(ﷺ) قد دعا على

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٢٤/٤ وما بعدها.
(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ١٠٦/٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٣١٦.
(٣) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٢٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤٣٠/٢.

بعض المؤمنين في لحظة غضب، فقد جاء في الحديث أنه(ﷺ) قَالَ:[اللهُمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ شَتَمْتُهُ، لَعَنْتُهُ، جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلاةً وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ][1]. يتضح مما سبق أن الخير في الآية بمعنى دعاء الإنسان لنفسه ولولده ولماله بالخير والنماء والبركة وما شابه ذلك من متع الدنيا، فمقابلة الخير بالشر في الآية تدل على هذا المعنى.

٢- قوله تعالي: ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولًا(١١)﴾ (الإسراء)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وغيره: هُوَ دُعَاءُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ عِنْدَ الضَّجَرِ بِمَا لا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ، اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ وَنَحْوُهُ ﴿دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أَيْ كَدُعَائِهِ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ النِّعْمَةَ، وَالْعَافِيَةَ، وَالرَّحْمَةَ وأن يرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، فلو اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّرِّ هَلَكَ، لَكِنْ بِفَضْلِهِ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ فِي ذَلِكَ [2]. وهذا-أيضًا- قول مجاهد وقتادة وعامة المفسرين [3]. ومما يدل علي هذا المعنى السياق القبلي؛ حيث قابل سبحانه وتعالى دعاء الإنسان بالشر بدعائه بالخير، ودعائه بالشر يدور حول الفقر والمرض والسخط والغضب، والكلام عن هذه الآية قريب من الآية التي قبلها، فلا داعي للتكرار.

٣- قوله تعالي: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٠٨-ح/٩٠(كتاب: الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ(ﷺ)، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ أَهْلًا لِذَلِكَ، كَانَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا وَرَحْمَةً).

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٢٣٤ وجامع البيان للطبري ١٤/ ٥١٢ وما بعدها، وبحر العلوم للسمرقندي ٢/٣٠٣، ومعالم التنزيل البغوي ٣/ ١٢٣.

(٣) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٣/ ٢٧٠ وما بعدها.

تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

اختلف في معني(الخير) في الآية على أقوال –

القول الأول: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قَالَ قَتَادَة: بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ [١].

القول الثاني: قوله عز وجل: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الشر: الفقر والمرض، والخير الغنى والصحة، قاله الضحاك [٢]. وقال الكلبي:{بِالشَّرِّ} بالفقر والبلايا {وَالْخَيْرِ} بالمال والولد [٣].

القول الثالث: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نَبْلُوهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ وَبِمَا يَكْرَهُونَ، نَخْتَبِرُهُمْ بِذَلِكَ لننظر كَيْفَ شُكْرُهُمْ فِيمَا يُحِبُّونَ، وَكَيْفَ صَبْرُهُمْ فِيمَا يَكْرَهُونَ [٤].

القول الرابع: قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الشر: غَلَبَة الْهوى على النفس، والخير: العصمة من المعصية والمعونة على الطاعة [٥].

---

(١) ينظر: تفسير يحيى بن سلام ٣١٢/١، وجامع البيان للطبري ٢٦٨/١٦، والجامع لأحكام القرآن ٢٨٧/١١.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٤٤٦/٣، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعلي بن أحمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) صـ٧١٥- حققه: صفوان عدنان- دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت- ط١- ١٤١٥هـ.

(٣) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٥/ ٧١.

(٤) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٦/ ٢٧٥، وزاد المسير لابن الجوزي١٩٠/٣.

(٥) ينظر: تفسير التُستري لسهل بن عبد الله التُستري(ت:٢٨٣هـ) صـ١٠٤- حققه: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١- ١٤٢٣هـ، وتفسير القرآن السمعاني ٣٧٩/٣.

وقد جمع ابن عباس بين الأقوال السابقة، فعَنْ عَلِيٍّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَبْتَلِيكُمْ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالصِّحَّةِ وَالسُّقْمِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلالَةِ [1].

ولا مانع من إرادة جميع ما ذكره ابن عباس؛ ولذلك قال الألوسي بعد ذكر الأقوال السابقة:" والتعميم أولى"[2].

ومما يدل على هذا السياق اللغوي؛ حيث قابل الله- تعالى- الشر بالخير، والشر يشمل كل ما يكرهه الإنسان من الشدة، والجوع، والفقر، والمرض، ونحو ذلك، والخير يعم ما هو ضد ذلك.

فالبلاء بالخير: يكون بِمَعْنَى النِّعْمَة، والغنى، والرخاء، وَالصِّحَّة، والإسعاد، وغير ذلك مِمَّا يخْتَلف على الإِنْسَان من أحوال الدنيا وكل ما يصح أن يكون ابتلاء.

ومما يدل- أيضًا- على أنه لا مانع من إرادة جميع المعاني السابقة السياق الكلي للقرآن الكريم؛ فقد بَيَّنَ المولي ــ سبحانه وتعالي ــ أن الابتلاء سُنَّةَ من سُنَنِه، فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ (الأعراف) يعني: بَدَّلْنَا مكانَ الجوعِ شِبَعًا، ومكانَ الفقرِ غِنًى، ومكانَ المرضِ صحةً وعافيةً، فالحسنة هي

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦/ ٢٦٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٢، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧/ ٤٧٥٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ٣٠٠.

(٢) روح المعاني للألوسي ٩/ ٤٥.

الحال الحسنة كالخصب وتوفير الرزق، والاطمئنان، والسيئة الحال التي لَا تسر، بل تسيء كالجدب والآفات [1].

فالإنسان قد يبتلي بالمحبوبات التي نسميها الخير كالشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، وغيرها من متاع الدنيا.

٤- قوله تعالي: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ . (المعارج).

في هذه الآيات نبّه الله ــ تعالى ــ إلى طبائع الإنسان وعما هو مجبول عليه من أخلاق ذميمة، واتصافه بالهلع والجزع والمنع، ثم استثنى المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال، ويتصفون بصفات لعلاج أمراض النفس البشرية، وليكونوا قدوة للإنسانية ومثلاً أعلى يحتذي به، فالإنسان بطبعه سريع الجزع إذا مسه شر وضر أو لحقه ضيق وعنت، شديد الحرص والمنع إذا صادفه رخاء ويسر.

وقد ذهب كثير من العلماء إلي أن المراد بالخير هنا(كثرة المال والغنى)، فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالي: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ المال والسعَة ﴿مَنُوعًا﴾ منع حق الله مِنْهُ ولا يشْكر[2]. وقال التستري: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ "وإذا

(١) ينظر: العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ ٢٤٦/١.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٤٨٥، وتفسير مقاتل بن سليمان ٤٣٧/٤، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٣٦/٥، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٢٦/٢٢.

أثرى منع"[١]. ويقول الطبري:" وَإِذَا كَثُرَ مَالُهُ، وَنَالَ الْغِنَى فَهُوَ مَنُوعٌ لِمَا فِي يَدِهِ، بِخَيْلٌ بِـهِ"[٢].

وهناك عدة أمور تدل علي هذا المعنى، منها قوله تعالي: ﴿ مَنُوعًا﴾ فالذي يمنع هو المال، وكذلك السياق البعدي في قوله تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فقد استثني الله ــ تعالي ــ من قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ جماعة يتصفون بصفات منها أنهم يؤدون ما عليهم من الزكاة ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ أي: مقدر. وأيضًا السياق القبلي يوضح هذا المعني ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى(١٨)﴾ {وَجَمَعَ} أي: جمع المال ﴿ فَأَوْعَى﴾ أمسكه في الوعاء ولم يؤد حق الله منه، أي جمع المال فَكَنَزَهُ ولم يَنفع به المحتاجين، وقَالَ النَّبِيُّ(ﷺ):[شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ][٣].

وهناك من العلماء من قال: إن الْمُرَاد مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ: الْفَقْرُ وَالْغِنَى أَو الْمَرَض وَالصِّحَّة [٤].

يقول أبو السعود :" ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير﴾ أي السَّعة والصحة "[٥]. ومما يدل على أن الصحة تدخل في(الخير) أن للصحة مدخلا في الشحّ، فإن الغني قد يعطي في المرض ما لا يعطيه في الصحة، ولذا كانت الصدقة حال الصحة أفضل، وأيضًا قابل (الخير) بالشّرّ "والشَّرّ: الأَذَى مِثْل الْمَرَضِ وَالْفَقْرِ، والْخَيْر: مَا يَنْفَعُ الإِنْسَانَ

(١) تفسير التُستري صـ١٧٧.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٣/ ٢٦٧، وينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣/ ٤٩٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٣/١٢-ح/٢٥١١ (بَابٌ فِي الْجُرْأَةِ وَالْجُبْن) .

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٠/٦٤٤، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٩/٣٦٩، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦/ ٣٥٨.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩/ ٣٢.

وَيُلائِمُ رَغَبَاتِهِ مِثْلَ الصِّحَّةِ وَالْغِنَى "[1].

ومما يدل علي أن الصحة تدخل في(الخير) قوله ــ تعالي ــ : ﴿ هلوعًا﴾، والهلع: أشد الجزع، وهو اضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع، فهو سرعة الحزن عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير، من قولهم: ناقة هلوع: إذا كانت سريعة السير، والمعنى: إنّ الإنسان جُبل على الهلع، فهو قليل الصبر شديد الحرص، فإذا افتقر أو مرض أخذ في الشكاة والجزع، وإذا صار غنيًّا أو سليمًا معافى منع معروفه وشحّ بماله[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨).

فسر علماء التأويل لفظ(الخير) في الآية بالمال، فقد روي عن ابن عباس أنه قال:" ﴿ وَإِنَّهُ لحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يحب المال الكثير حبًا شَدِيدًا "[3]. وعَن قَتَادَة ﴿ وَإِنَّهُ لحب الْخَيْرِ﴾ قَالَ:" هُوَ المال "[4].

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/ ١٧٠.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري(ت:٣٧٠هـ) ١/ ١٠٣(ه ل ع)حققه: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١-٢٠٠١م، ولسان العرب ٣٧٥/٨ (ه ل ع) وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي (ت:٩٢٧هـ) ١٦٠/٧- حققه: نور الدين طالب- دار النوادر- ط١- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٥١٧.

(٤) تفسير عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني(ت:٢١١هـ) ٤٥٢/٣- حققه: د. محمود محمد عبده- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٩هـ، والدر المنثور للسيوطي ٨/ ٦٠٤.

وكثير من علماء غريب القران فسروا(الخير) هنا بالمال، فقوله تعالي: ﴿ وَإِنَّـهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي من أجل حب الخير وهو المال لبخيل [١].

ويكاد يتفق علماء التفسير [٢] علي أن(الخير) في الآية المال، يقول الواحدي:" ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الخير: المال هَاهنا في قول الجميع، والله ــ تعالى ــ سمى المال خيرًا في مواضع من التنزيل كقوله: ﴿ إِنْ تَـرَكَ خَيْـرًا﴾ (البقرة: ١٨٠) ونحوه، وعلى هذا عَادة الناس؛ لأَنَّ النَّاسَ يعدُّونَه فِيمَا بَيْنَهُمْ خَيْرًا، وهذا كما أنه سَمَّى مَا يَنَالُ الْمُجَاهِدِ مِنَ الْجِرَاحِ وَأَذَى الْحَرْبِ سُوءًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ (آل عمران:١٧٤) على ما يتعارفه الناس بينهم، لا على أنه سوء في العاقبة. ذكر ذلك ابن زيد، الشَّدِيدِ: البخيل... المعنى: فإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل، (وهذا معنى قول المفسرين)"[٣]. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَقَوِيٌّ، أَيْ شَدِيدٌ الْحُبِّ لِلْخَيْرِ، أَي المال [٤].

وعلي هذا فالسياق البعدي وهو لفظ (لشديد) يدل علي أن الخير: المال، فـ {لشديد} أي بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه، فهو لأجلِ حُبِّ المال وثقل إنفاقه عليه لبخيلٌ ممسكٌ، أو{لشديد} أيْ : قويٌ مطيقٌ مجدٌّ في طلبِه وتحصيلِه متهالكٌ عليهِ، ولذلك كان حريصًا عليه، ويرتكب المشاق في جمعه، كما أن جمهور المفسرين علي أن الخير هنا: المال.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/٢٨٥، وغريب القرآن لابن قتيبة صـ٥٣٦، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢٦٢.

(٢) ينظر : تفسير مقاتل ٤/ ٨٠٣، وجامع البيان للطبري ٢٤/ ٥٨٨، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٥/١٥٥.

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٤/ ٢٥٤.

(٤) ينظر: معالم التنزيل للبغوي ٥/ ٢٩٦، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/ ٣٣١.

فالخير هنا بمعنى المال على غرار قوله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:٢٠) فالْخَيْرُ في الأصل عَامٌّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧)، وَلَكِنَّهُ هُنَا خَاصٌّ بِالْمَالِ،" فَهُوَ مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ مِنْ قَصْرِ الْعَامِّ عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِهِ؛ لِأَنَّ الْمَالَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ (البقرة:١٨٠)، أَيْ: مَالًا؛ لِأَنَّ عَمَلَ الْخَيْرِ يَصْحَبُهُ مَعَهُ وَلا يَتْرُكُهُ"[١].

وتفسير الخير بالمال على عرف ذلك في كتاب الله ــ تعالى ــ وورد بهذا المعنى في القرآن كثيرًا حتى زعم عكرمة: أَن الخير حيث وقع في القرآن هو المال[٢].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٩/ ٦٧.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٥١٥، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١٠/٥٣٠.

المبحث الثالث

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق المؤمنين

إن الإنسان إذا دفع الشرور والأطماع الغالبة على طبعه، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه، تجده مطيعًا لله ورسوله في الأمر والنهي، وإذًا يرى الخير في أن يكون صالحًا لنفسه ومصلحًا لغيره نافعًا لمجتمعه، ولذا تجده يحض على سبل الخير التي ترضي الله– تعالى– من هنا وعده الله – تعالى– خيري الدنيا والآخرة، من هنا جاء لفظ الخير الوارد في حق المؤمن في القرآن ملائمًا لفطرته وطبعه، متسقًا مع منهج الله ــ تعالى ــ وما وعدهم به وإليك هذه الآيات:

١– قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.(البقرة: ١١٠).

بعد أن أمر تعالى بالعفو وَالصَّفْحِ عن اليهودِ إلي أن يشاء في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (البقرة: ١٠٩) أمر بالأخذ بوسائل النصر من إقامة الصلاة(التي تصلح ما بين العبد وربه) وإيتاء الزكاة(التي تصلح ما بين الناس مع بعضهم البعض من غني وفقير، وقوي وضعيف) وحثهم على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، فقال تعالي: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلي أن المراد بالخير في الآية العمل الصالح، وعلي رأسهم ابن عباس(١)، ويقول الطبري:" قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ: وَمَهْمَا تَعْمَلُوا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي أَيَّامِ

(١) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ١٦.

حَيَاتِكُمْ فَتُقَدِّمُوهُ قَبْلَ وَفَاتِكُمْ ذُخْرًا لأَنْفُسِكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، تَجِدُوا ثَوَابَهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، وَالْخَيْرُ: هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّهُ "[1]. فالخير في الآية الطاعة والعمل الصالح، فهو عام يشمل أيَّ شيءٍ من الخيرات- فرضًا كانت أو تطوعًا- تقدّموه لمصلحة أنفسِكم [2]. ونظير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ (آل عمران:٣٠)، وقال في آية أخرى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧).

وخص بعض المفسرين(الخير) في الآية بالْمَال كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وَأَرَادَ: وَما تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [3]. وخص بعض آخر(الخير) في الآية بصدقة التطوع [4].

ويبدو أن الراجح هو عموم لفظ(الخير) في الآية وتفسيره بالطاعة والعمل الصالح من صلاة، وزكاة، وصدقة، وغير ذلك من الفرائض والتطوعات؛ إذ لا داعي لتخصيص(الخير) في الآية بالمال خصوصًا أنه قد تقدم ذكره في قوله تعالي: ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، كما أن السياق اللغوي يدل علي العموم؛ إذ جاء لفظ(خير) منكرًا في سياق جملة الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فالله ــ تعالى ــ أَتَى بهذه الجملة الشَّرْطِيَّة عامَّة لجميعِ أَنْوَاع الْخَيْرِ، أي خير كان، وقد أكد سبحانه وتعالى العموم بالتعبير بـ(ما) الدالة على العموم، فإنها بمعنى الذي، وهي تدل على العموم الشامل، وعلي هذا فقد أمر الله- تعالي-

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٢/ ٤٢٦.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٨٤/١، وتفسير القرآن للسمعاني ١/ ١٢٧، وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ١/ ١٧٦.

(٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ١/ ٢٥٩، ومعالم التنزيل للبغوي ١٥٥/١.

(٤) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١/ ٧١.

عباده في هذه الآية بالمواظبة على عمودي الإسلام، وهما العبادة البدنية التي تؤكد حسن صلة العبد بخالقه (وهي الصلاة) والعبادة المالية التي تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين(وهي الزكاة)، ثم أتى بجملة ﴿ وَما تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ بعد ذلك، لترغبهم في فعل الخير على وجه عام، فإن الخير يتناول أعمال البر كلها والأعمال الصالحة سواء أكانت فرضًا أم نفلاً بدليل جملة الشرط ﴿وَما تُقَدِّمُوا﴾، وأما تفسيره هُنَا بِالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ فهو خلاف الأولى، وَالأَظْهَر الْعُمُوم.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (البقرة: ١٤٨).

الْمُرَادَ بِالوجْهة: قِبْلَة، وَهُوَ قَوْلُ ابْن عَبَّاس، وَهِيَ قِرَاءَة أُبَيٍّ [١].

وقد اختلف في معنى لفظ(الْخَيْرَاتِ) في الآية على وجهين-

الوجه الأول: التوجه إلى القبلة(الكعبة) وعبر عنها بالخيرات إشارة إلى اشتمالها على كل خير، يقول الزجاج :" ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي فبادروا إلى القبول من الله ــ عزَّ وجلَّ ــ ووَلُّوا وجوهكم حيث أمركم أن تولوا"[٢]. وعلى هذا فـ ﴿ الْخَيْرَاتِ﴾ على صيغتها من العموم، وهي مخصوصة؛ لأنه أراد الابتدار إلى استقبال الكعبة، ويكون قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في المؤمنين خاصة، ومعناه: إن الذي سبق في علم الله أنه يصلي إلى الكعبة، فأينما يكون في شرق الأرض وغربها، وفي أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، يجمعه الله

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٢/ ٣٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٢٦/١.

على التوجه إلى هذه القبلة، فهذا محمول على صرف وجوه الناس إلى الكعبة للصلاة والمناسك(١).

وعن الْحسَن: اثْبُتُوا عَلَى قِبْلَتِكُمْ فَإِنَّهَا وَجْهُ اللَّهِ الَّتِي وَجَّهَ إِلَيْهَا مَنْ صَدَّقَ نَبِيَّهُ(ﷺ) وَآمَنَ به(٢). وعَنْ قَتَادَةَ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يَقُولُ: لا تُغْلَبُنَّ عَلَى قِبْلَتِكُمْ (٣). وأجاز الزمخشري أن يكون المعنى:" فَاسْتَبِقُوا الْفَاضِلاتِ مِنَ الْجِهَاتِ، وَهِيَ الْجِهَاتُ الْمُسَامِتَةُ لِلْكَعْبَةِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ، أَيْنَمَا تَكُونُوا مِنَ الْجِهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعُكُمْ وَيَجْعَلُ صَلاتَكُمْ كأنها إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، كَأَنَّكُمْ تُصَلُّونَ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الحرام"(٤). وعلى هذا ف(اللام) في الْخَيْرَاتِ للعهد، ولعله تعالي قَدَّمَ قَوْلَهُ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ للاهتمام بِالْوِجْهَةِ.

الوجه الثاني: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بَادروا بِالطَّاعَاتِ والأعمال الصالحة يَا أمة مُحَمَّد، قاله ابن عباس(٥).

فالْخَيْرات- جمع خَيرَة- وهي الفاضلة من كل شيء، واللام للاستغراق، فيعم أمر القبلة وغيره ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أَيْ: ابْتَدِرُوا كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ بِالْعَمَلِ، وَلْيَحْرِصْ كُلٌّ مِنْكُمْ عَلَى سَبْق غَيْرِهِ إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ الإِمَامِ الْمُرْشِدِ

(١) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٣/ ٤٠٥.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١/ ٢٥٧.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ٢/ ٦٨٠، وزاد المسير لابن الجوزي ١٢٢/١، والدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥٨.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ١/ ٢٠٥.

(٥) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢١، ومعالم التنزيل للبغوي١٨١/١، ولباب التأويل للخازن ٩٠/١.

لا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَهَذَا الأَمْرُ عَامٌّ مُوَجَّهٌ إِلَى أُمَّةِ الدَّعْوَةِ لا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ [1].

وعلي الرغم من أنه لا مانع من حمل(الخيرات) في الآية علي العموم فَإِنْ ظَاهر الأمر بالاستباق إِلَى كُلّ مَا يَصْدُقُ عليه أَنَّهُ خَيْرٌ، كَمَا يفيدُهُ العمومُ المستفاد من تعريف الخيرات، إلا أن الأمر هنا خاص كَمَا يُفِيدُهُ السِّيَاقُ، فالسياق يرجح حملها على التوجه إلى القبلة(الكعبة)، حيث إن الآيات التي قبل هذه الآية والتي بعدها ترجح أن الاستباق إلي الخيرات هو استباق إلي أمر القبلة(الكعبة) يعني التوجه إليها، وهذا يتضح من أول قوله ــ تعالي ــ: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:١٤٢) فهذا يوضح إنكار السفهاء والكفار أمر القبلة والتوجه إليها، وبين سبحانه وتعالي أنه هو الذي يملك كل شيء حتي الجهات من المشرق والمغرب، وأنه يهدي ويوجه من يشاء إلي الجهة التي اختارها له، ثم أكد ــ سبحانه وتعالي ــ التوجه إليها بأسلوب رائع، مبينًا أن القبلة هي اختبار للإيمان ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (البقرة:١٤٣)، ثم أخبر الله ــ تعالي ــ أنه وجّه نبيه القبلة التي كان رسول الله(ﷺ) يحب أن يتوجه إليها، حيث كان الرسول(ﷺ) يحب مخالفة اليهود في كل شيء، ومن ذلك مخالفتهم في التوجه إلي بيت المقدس، ثم أخبر تعالي أن أهل الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّ أمر القبلة هو الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وأنك مهما جئتهم بالآيات مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، فلا تتبع أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، ثم قال ــ تعالي ــ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: ولكل أهل ملة قبلة يتجهون

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٤١٣، وتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ٢/ ١٩.

إليها في عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من التوجه إلى البيت الحرام، ثم أكد سبحانه حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام في حالتي السفر أو الحضر، فقال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:١٤٩) ، ثم كرر سبحانه الأمر بالتوجه إلى الكعبة لعلة أخرى، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ (البقرة:١٥٠).

وقد ذكر البيضاوي أن الله ــ تعالى ــ كرر هذا الحكم (تحويل القبلة) لتعدد علله، فإنه ــ تعالى ــ ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول(ﷺ) بابتغاء مرضاته، والعلة الثانية: جرت العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ثم ذكر العلّة الثالثة وهي دفع حجج المخالفين، فقال: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقوله: { فَوَلُّوا } والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأن محمدًا يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا، والمشركين بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته [1]. كما أن سياق الحال يدل على أن لفظ (الخيرات) هنا خاص بالقبلة، فقد قَرَأَ أُبَيٍّ: وَلِكُلٍّ قِبْلَةٌ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ (ابن مسعود): وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا قِبْلَة [2].

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ١١٣.

(٢) عثرت علي القراءتين في كتاب المصاحف لأبي بكر بن أبي داود السجستاني(ت:٣١٦هـ) صـ١٦٩- حققه: محمد عبده- الفاروق الحديثة- القاهرة- ط١-١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، والكشف والبيان للثعلبي ١٤/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٦/٢.

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).

مُنَاسبة هَذه الْآيَة لما قَبْلَهَا: بعد أن بين الله- تعالى- أنه يبتلي عباده: ﴿ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة:١٥٥) وأَثنَى على الصَّابِرين فقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ وكان الْحَجُّ من الأعمال الشَّاقَّة الْمُفْنية للمال والبدن وكان أحدَ أَرْكَان الْإِسلام، نَاسب ذِكْرُهُ ذكر شعائره الشاقة بعد ذلك.

اختلف العلماء في حكم السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة على أقوال(١)-

القول الأول: ذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أنه ركن، وَهُوَ قَوْلُ ابْن عُمَرَ وَجَابِر وَعَائِشَة، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ.

القول الثاني: ذهب الثَّوْرِيُّ وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن، وإنما وَاجِبٌ وعَلَى مَنْ تَرَكَهُ دَمٌ، واحتج أبو حنيفة بقوله: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة:١٥٨) وهذا لا يقال في الأركان، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فبين أنه تطوع وليس بواجب، وعلى ذلك قال الحسن: إن المراد من قوله: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ جميع الطاعات في الدين، يعني فعل فعلاً زائدًا على ما افترض عليه من صلاة، وصدقة، وصيام، وحج، وعمرة، وطواف، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي ١٩١/١وما بعدها، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢٣٠/١ وما بعدها، ولباب التأويل ٩٧,٩٦/١.

القول الثالث: روي عن ابن الزبير، ومجاهد، وعطاء أن من تركه فلا شيء عليه، واحتج عطاء بقراءة أُبَيٍّ وبما في مصحف ابن مسعود(أَنْ لا يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [1]، ولا تصلح أن تكون ناصرة لهذا القول؛ لأنها قراءة خالفت مصاحف الإسلام، فهي شاذة لا عمل بها مع ما يعارضها؛ وقد أنكرتها عائشة(رضي الله عنها) في قولها لعروة حين قال لها: أرأيت قول الله: فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما؟ فما نرى على أحد شيئًا ألا يطوف بهما، قالت: يا عروة كلا لو كان ذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما. وأيضًا فإن ما في مصحف ابن مسعود يحتمل أن يرجع إلى معنى أن يطوف، وتكون(لا) زائدة صلة في الكلام، كما يقتضيه السياق، كقوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (الأعراف: ١٢).

القول الرابع: وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ تَطَوُّع، وَهُوَ قَوْلُ ابْن عَبَّاس، وَبِهِ قَالَ ابْنُ سِيْرِيْن، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْي، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: ومن تطوّع بالطواف بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ فَمَنْ تَطَوَّعَ، أَيْ: زَادَ فِي الطَّوَافِ بَعْدَ الْوَاجِب، وَقِيلَ: مَنْ تَطَوَّعَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَة بَعْدَ أَدَاء الْحَجَّةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ.

يتضح مما سبق أن من قال بوجوب السعي قال: معنى تَطَوَّعَ أي زاد برًا بعد الواجب، فجعله عامًا في سَائِرِ الْعِبَادَاتِ والأعمال [2]، وقال بعضهم: معناه من تطوع بحج أو عمرة بعد حجة الفريضة [3]، ومن لم يوجب السعي قال: المعنى

---

(١) ينظر القراءة في: كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني صـ١٨٨.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢/ ٢٩، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/١١٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١/١٨١.

(٣) ينظر: النكت والعيون للماوردي ١/ ٢١٣، وتفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري ٣/ ٦٢.

من تطوع بالسعي بينهما [١]، وقِيلَ: زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ [٢]. يقول الواحدي:" قال مجاهد:(ومن تطوع خيرًا) بالطواف بهما، وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضًا. وقال مقاتل والكلبي: ومن تطوع خيرًا فزاد في الطواف بعد الواجب. ومنهم: من حمل هذا النوع على العمرة، وهو قول ابن زيد، وكان يرى العمرة غير واجبة. وقال الحسن:{وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا} يعني به: الدين كله، أي: فعل غير المفترض عليه من طواف، وصلاة، وزكاة، ونوع من أنواع الطاعات. وهذا أحسن هذه الأقاويل؛ لأن قوله:(ومن تطوع خيرًا) صيغته تدل على العموم"[٣].

وقد رجح كثير من العلماء عموم لفظ(خَيْرًا) في الآية [٤]، يقول ابن عاشور:" قَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ تَذْيِيلٌ لِمَا أَفَادَتْهُ الآيَةُ مِنَ الْحَثِّ عَلَى السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بِمَفَادِ قَوْلِهِ: ﴿ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ﴾ وَالْمَقْصِدُ مِنْ هَذَا التَّذْيِيلِ الإِتْيَانُ بِحُكْمٍ كُلِّيٍّ فِي أَفْعَالِ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا مِنْ فَرَائِضَ وَنَوَافِلَ، أَوْ نَوَافِلَ فَقَطْ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ(خَيْرًا) خُصُوص السَّعْي ؛ لأَنَّ خَيْرًا نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَهِيَ عَامَّةٌ، وَلِهَذَا عُطِفَتِ الْجُمْلَةُ بِالْوَاوِ دُونَ الْفَاءِ؛ لِئلا يَكُونَ الْخَيْرُ قَاصِرًا عَلَى الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، بِخِلافِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةِ الصِّيَام: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٦٨/١، وجامع البيان في تفسير القرآن للإيجي ١١١/١.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٢، وتفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٥٢.

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١/ ٢٧٩.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٣٩/٤، ولباب التأويل للخازن ٩٧/١، وغرائب القرآن للنيسابوري ٤٤٦/١.

[الْبَقَرَة:١٨٤] لأَنَّهُ أُرِيدَ هُنَالِكَ بَيَانُ أَنَّ الصَّوْمَ مَعَ وُجُودِ الرُّخْصَةِ فِي الْفِطْرِ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ، أَوْ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى إِطْعَامِ مِسْكِينٍ أَفْضَلُ مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَيْهِ "[١].

فقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي من أتى بخير فرضًا كان أو نفلاً، وهو عطف على﴿ فَمَنْ حَجّ ﴾ إلخ، مؤكد أمر الحج والعمرة والطواف تأكيد الحكم الكلي للجزئي، وفائدة(خَيْرًا) مع أن التطوع لا يكون إلا كذلك التنصيص بعموم الحكم بأن من فعل خيرًا ــ أي خير كان ــ يثاب عليه [٢]. فعموم اللفظ أولى؛ لأن خصوص السبب لا يوجب خصوص الحكم؛ ولأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعمومية، فيعم الحكم حسب عموم الوصف.

٤- قوله تعالي: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠).

تناولت هذه الآية حقوق بعض أولياء الميت فيما ترك من خير وهم: الوالدان والأقربون، فذكرت أن من تَوقَّعَ النهاية، فعليه أن يوصي بتركته لوالديه وبقية أقاربه، بما يعرف العقلاء حسنه، فلا يحرم بعضهم بدون حق، وجمهور المفسرين (ومنهم ابن عباس وابن عمر) على أن هذ الآية منسوخة بآيات الميراث في سورة النساء[٣].

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢/ ٦٤.

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٤٢٥.

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١/ ٥٧٦، والدر المنثور للسيوطي ١/٤٢٤.

والمرادُ بالخَير هنا المال[1]، سواء أكان المال قليلاً أم كثيرًا، وعن ابن عباس ﴿إن تَرَكَ خَيْرًا﴾ يَعْنِي: مَالاً. ورُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيّ، وَالضَّحَّاكِ، وَالسُّدِّيِّ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَقَتَادَةَ، وغيرهم، مِثْل قَوْل ابْن عَبَّاسٍ [2]، فالخير هنا: المال في قول الجميع، ولا خلاف في ذلك [3].

وسياق الآية العام يدل على أن المراد بالخير هنا: المال؛ لأن الآية تناولت حقوق الوالدين والأقربين فيما يتركه الميت، وما يترك هو المال وما في معناه من العروض.

وَقَيَّدَ بعض العلماء (الخير) في هذا الموضع بالمال الْكَثِير أَخْذًا مِنَ التَّنْكِيرِ، وَالأَوْلَى بِالصَّوَابِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ مَن قال إنه لا حد للْمَالِ؛ لأَنَّ قَلِيل الْمَالِ وكَثِيرَهُ يَقَعُ عَلَيْهِ خَيْرٌ، ولَمْ يَحُدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِحَدٍّ وَلا خَصَّ مِنْهُ شَيْئًا، فَكُلُّ مَنْ حَضَرَتْهُ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَهُ مَالٌ قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُوصِيَ مِنْهُ لِمَنْ لا يَرِثُهُ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ مَشْرُوعَةٌ فِي الْمَالِ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فالأُولَى عَدَمَ تَقْدِيرِهِ؛ لاخْتِلافِهِ بِاخْتِلافِ الْعُرْفِ، فَهُوَ مَوْكُولٌ إِلَى اعْتِقَادِ الشَّخْصِ وَحَالِهِ، وَلا يَخْفَى أَنَّ الْعُرْفَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الزَّمَانِ وَالأَشْخَاصِ وَالْبُيُوتِ، فَمَنْ يَتْرُكْ سَبْعِينَ دِينَارًا فِي مَنْزِلٍ فَقْرٍ، وَبَلَدٍ قَفْرٍ، وَهُوَ مِنَ الدَّهْمَاءِ فَقَدْ تَرَكَ خَيْرًا،

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/١٥٩، ومعاني القرآن للزجاج ١/٢٥٠، واللباب في علوم الكتاب ٣/ ٢٣٤.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٥، وجامع البيان للطبري٣/١٣٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦٢.

(٣) ينظر: النكت والعيون للماوردي ١/ ٢٣١، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥/ ٢٣١.

وَلَكِنَّ الأَمِيرَ أَوِ الْوَزِيرَ إِذَا تَرَكَا مِثْل ذَلِكَ فِي الْمِصْرِ الْكَبِيرِ فَهُمَا لَمْ يَتْرُكَا إِلا العَدَمَ وَالْفَقْرَ، وَمَا لا يَفِي بِتَجْهِيزِهِمَا إِلَى الْقَبْرِ [١].

٥- قوله تعالي: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة١٨٤)

قوله ــ تعالي ــ: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي يطيقون الصوم ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، أي يدفع لكل مسكين مقدار نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومُد عند فقهاء الحجاز، ويفطر ذلك اليوم، كان هذا في أول الإسلام ثم نسخت هذه الآية بالآية التي بعدها [٢]، وهى قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقد اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ في معني الخير في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ على أقوال[٣]-

القول الأول: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يومٍ مسكينين فصاعدا. قاله ابن عباس، وعِكْرِمَة، ومُجَاهِد، وعَطَاء، وطاووس، والسُّدِّيّ، وهو قول أكثر العلماء [٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٣/ ١٣٨، وتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ١٠٩/٢.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ١/ ١٢١ وما بعدها، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ١٢٤.

(٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٦٥/٢، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٥٦٨/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٩/٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٣/ ٢٧٢.

(٤) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٥، وتفسير مجاهد صـ٢٢٠، وتفسير مقاتل ابن سليمان ١٦١/١.

القول الثاني: وَقَالَ آخَرُون: أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يعني: فَزَادَ الْمِسْكِين عَلَى قَدْرِ طَعَامِهِ، رواه ابن جريح عن مُجَاهِد. وعلق الطاهر بن عاشور علي هذا القول، فقال:" وَعَنْ مُجَاهِدٍ: مَنْ زَادَ فِي الإِطْعَامِ عَلَى الْمُدِّ. وَهُوَ بَعِيدٌ؛ إِذْ لَيْسَ الْمُدُّ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الآيَةِ "(١).

القول الثالث: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَصَامَ مَعَ الْفِدْيَة، قاله الزُّهريُّ.

وحكم ابن العربي على هذا القول بالضعف، فقال:" ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ زَادَ عَلَى طَعَامِ مِسْكِينٍ، وَقِيلَ: مَنْ صَامَ؛ وَهَذَا ضَعِيفٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مَعْنَاهُ الصَّوْمُ خَيْرٌ مِنْ الْفِطْرِ فِي السَّفَرِ، وَخَيْرٌ مِنْ الإِطْعَامِ " (٢).

مما سبق يتضح أن الرأي الراجح في تفسير الخير في الآية هو القول الأول(زاد على مسكين واحد)؛ إذ عليه معظم أهل التأويل، وهو المتبادر إلي الذهن، فقول من قال يصوم مع الفدية يرده السياق، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ إذ قد حث على الصيام مما يدل علي أنه لم يرد الصوم في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، لأنه لا يكون لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معنى. كما أن قول من قال أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب يرده أن هذا القدر لم يرد له ذكر في سياق الآية، وعلى هذا فالمتبادر إلى الذهن القول الأول(زاد على مسكين واحد) لقوله تعالى: ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢/ ١٦٨.

(٢) أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي(ت:٥٤٣هـ) ١/١١٤- علَّق عليه: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت – ط٣-١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

ومع كون الراجح هو القول الأول إلا أنه لا مانع من حمل(الخير) على عموم المعاني الثلاثة؛ إذ الزيادة من الخير خير، ولهذا يقول الطبري:" وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّ اللَّهَ ــ تعَالَى ذِكْرُهُ ــ عَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فَلَمْ يُخَصِّصْ بَعْضَ مَعَانِي الْخَيْرِ دُونَ بَعْضٍ، فَإِنْ جمع الصَّوْمَ مَعَ الْفِدْيَةِ مِنْ تَطَوَّعِ الْخَيْرِ، وَزِيَادَةِ مِسْكِينٍ عَلَى جَزَاءِ الْفِدْيَةِ مِنْ تَطَوَّعِ الْخَيْرِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أَيَّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَطَوَّعَ بِهِ الْمُفْتَدِي مِنْ صَوْمِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ لأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ تَطَوَّعِ الْخَيْرِ وَنَوَافِلِ الْفَضْلِ"(١).

٦- قوله تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

أمر اللَّه ــ تَعَالَى ــ قَبْلَ هذه الآيَةِ بفعل ما هو طَاعَةٌ، فَقَالَ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وفى هذه الآية بيان لميقات الحج وظرفه وما ينبغي أن يأخذ به الحاج نفسه من آداب خلال تلك الأيام المباركة التي تؤدى فيها فقال: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ ونَهَى عَمَّا هُوَ شَرٌّ وَمَعْصِيَةٌ فيها فَقَالَ: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ﴾ وإنما نهي عن ذلك وأمر باجتنابه في الحج وإن كان اجتناب ذلك في كل الأحوال والأزمان واجبًا؛ لأن الرفث، والفسوق، والجدال في الحج أفظع منه في غيره، فإنّ زيارة البيت المعظم، والتقرب بها إلى الله ــ عزّ وجلّ ــ من موجبات ترك الأمور المذكورة، ثُمَّ عَقَّبَ الْكُلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فحث الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشر، حتى نَسْتَبْدِل بِتِلْكَ الْمَنْهِيَّات أَضْدَادَهَا، فَنَسْتَبْدِل بِالرَّفَث الْكَلام الحسن والفعل الجميل،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٣/ ١٨٥.

وبالفسوق البر والتقوى والطاعة، وبالجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، فجعل فعل الخير عبارة عن ربط الأنفس عن الشر حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه [١].

وقد فسر كثير من العلماء لفظ(الخير) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ بترك المنهيات السابقة، يقول ابن عباس:" ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مَا تتركوا من رفث وفسوق وجدال فِي الحرم "[٢].

ومما يدل على أن قوله تعالى: ﴿ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ حث على الخير عقيب النهى عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البرّ والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة السياق البعدي، وهو قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ أي اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإنّ خير الزاد اتقاؤها [٣].

ويرى بعض العلماء أن قوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيه حث وترغيب في فعل كل خير، وإخبار أن الله ــ تعالى ــ ليس بغافل عن فعلهم، فهو مجازيهم بذلك، وأنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، والسياق اللغوي يدل على عموم الخير؛ حيث قال: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أتى بـــ(مِنْ) المفيدة لتنصيص العموم، فالجملة شرطية، و{خير} نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فيشمل كل خير سواء أكان قليلاً أم كثيرًا، وعلى هذا فكل عبادة وقربة فإنها تدخل في هذا، والإخبار بعلمه:

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥/ ٣٢٠، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١/ ١٣٠.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٧، وينظر: تفسير مقاتل ١/ ١٧٣، وبحر العلوم للسمرقندي ١/ ١٣٢.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ١/ ٢٤٤.

فإن الله به عليم، يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، خصوصًا في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة، وصيام، وصدقة، وطواف، وإحسان قولي وفعلي(١).

وعلى كل فلا تعارض بين من فسر الخير في الآية باتقاء القبائح: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ﴾، ومن عمم الخير في كل عمل صالح، فمن الممكن أن يدخل اتقاء القبائح في هذا دخولًا أوليًا، خصوصًا في هذه الأماكن المباركة، مع إرادة فعل جميع أنواع الخير.

٧- قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.(البقرة: ٢١٥).

وَرَدَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ الآية أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلوا رَسُولَ اللهِ(ﷺ) أَيْنَ يَضَعُونَ أَمْوَالَهُمْ؟، فَنَزَلَت الآيَةُ، وَرَوَى الْكَلْبِيُّ عن ابن عباس أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْجَمُوح سَأَلَ النَّبِيَّ(ﷺ) مَاذَا نُنْفِقُ مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَيْنَ نَضَعُهَا؟ فَنَزَلَتْ (٢).

وقد نص العلماء على أن معني (الخير) في الآية: المال (٣)، يقول الطبري عند تفسيره لهذه الآية:" يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ يَا مُحَمَّدُ، أَيُّ شَيْءٍ يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَتَصَدَّقُونَ بِهِ، وَعَلَى مَنْ يُنْفِقُونَهُ فِيمَا يُنْفِقُونَهُ، وَيَتَصَدَّقُونَ

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن للواحدي ٣٠٢/١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي(ت:١٣٧٦هـ) صـ٩١- حققه: عبد الرحمن ابن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة-ط١-١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٦٩، والدر المنثور للسيوطي ١/ ٥٨٥.

(٣) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٩، وتفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢٨٧/١.

بِهِ؟ فَقُلْ لَهُمْ: مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَتَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَأَنْفِقُوهُ، وَتَصَدَّقُوا بِهِ وَاجْعَلُوهُ لآبَائِكُمْ، وَأُمَّهَاتِكُمْ، وَأَقْرَبِيكُمْ، وَلِلْيَتَامَى مِنْكُمْ، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، فَإِنَّكُمْ مَا تَأْتُوا مِنْ خَيْرٍ وَتَصْنَعُوهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ... وَالْخَيرِ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ هُوَ الْمَالُ الَّذِي سَأَلَ رَسُول اللَّهِ (ﷺ) أَصْحَابهُ مِنَ النَّفَقَةِ مِنْهُ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ بِمَا أَجَابَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ "[1].

وذكر السمعاني أن المراد بالخير(المال)" الْوَصِيَّة الَّتِي كَانَت وَاجِبَة فِي الِابْتِدَاء للْوَالِدين والأقربين. وَقيل: أَرَادَ بِهِ التطوعات وَالصَّدَقَات جعلهَا للْوَالِدين، والأقربين، واليتامى، وَالْمَسَاكِين، وَابْن السَّبِيل"[2].

وقيد بعض العلماء المال بِالْكَثِيرِ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ هُنَا: (مِنْ خَيْرٍ) يَعُمُّ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ لتنكيره ودُخُول (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّةِ عَلَيْهِ [3].

ومما يؤكد على أن(الخير) في الآية: المال، السياق اللغوي، وهو قوله: (يُنْفِقُونَ)؛ إذ الإنفاق يكون بالمال من أي أنواع الأموال، قليلاً كان أو كثيرًا، وكذلك سياق الحال يدل علي أن الخير – هنا– المال، وهو سبب نزول الآية، فعمرو ابن الجموح سأل الرسول(ﷺ) ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟

وأما الخير الثاني الوارد في الآية، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فبعض العلماء فسره بالمال [4]، لكن أكثر العلماء حملوا الخير

(١) جامع البيان للطبري ٣/ ٦٤٠.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني ٢١٥/١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ٢٤٦/٢.

(٤) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٨٣.

على العموم [1]، فالله ــ تَعَالَى ــ رَاعَى التَّرْتِيبَ فِي الإِنْفَاق، فبدأ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَب، ثُمَّ بِالأَحْوَجِ فَالأَحْوَجِ، فَقَدَّمَ الْوَالِدَيْنِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُمَا كَالْمُخْرِجِ لَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَعْدَ الْوَالِدَيْنِ الأَقْرَبِينَ، ثُمَّ الْيَتَامَى، ثُمَّ الْمَسَاكِينِ، ثُمَّ ابْنِ السَّبِيلِ، فَهَذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الصَّحِيحُ الَّذِي رَتَّبَهُ اللَّهُ ــ تَعَالَى ــ فِي كَيْفِيَّةِ الإِنْفَاق، ثُمَّ لَمَّا فَصَّلَ هَذَا التَّفْصِيلَ الْحَسَنَ الْكَامِلَ أَرْدَفَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالإِجْمَالِ فَقَالَ: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فالخير قيل: المال، وقيل: يَتَنَاوَلُ الإِنْفَاقَ وَسَائِرَ وُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَةِ، وَهَذَا أَوْلَى[2].

ومما يدل على أن الأولى حمل الخير الثاني الوارد في الآية على العموم، أنه جاء منكرًا في سياق جملة الشرط فقوله: ﴿ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ شَرْطٌ، وَجَوَابُهُ: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾، كما أن متعلق(الخير) هنا هو ﴿تَفْعَلُوا ﴾، وَالْفِعْلُ أَعَمُّ مِنَ الإِنْفَاق، فَيَدْخُلُ الإِنْفَاقُ فِي الفعل، فخير هُنَا هُوَ الَّذِي يُقَابِلُ الشَّرَّ، وَالْمَعْنَى: وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ شَيْءٍ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَالأَوْلَى الْعُمُوم؛ لأَنَّهُ يَشْمَل إِنْفَاق الْمَال وغيره، وَيَتَرَجَّح بِحَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الْعُمُومِ [3].

٨- قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ(٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢٧٣) ﴾. (البقرة)

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٥٢٢/٣، وروح المعاني للألوسي٥٠١/١، والتحرير والتنوير٢/ ٣١٨.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦/ ٣٨٣.

(٣) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢/ ٣٧٨.

سبب نزول الآية : **ذكر العلماء في سبب نزولها وُجُوهاً** -

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ حِينَ جَاءَتْ قُتَيْلَةُ أُمُّ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، وجدَّتُهَا وَهُمَا مُشْرِكَتَانِ، أَتَيَا أَسْمَاءَ يَسْأَلَانِهَا شَيْئًا، فَقَالَتْ لا أُعْطِيكُمَا حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَسُولَ اللَّهِ(ﷺ) فَإِنَّكُمَا لَسْتُمَا عَلَى دِينِي، فَاسْتَأْمَرَتْهُ فِي ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ، فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) أَنْ تَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمَا [(١)].

الرواية الثانية: عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أُنَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ لَهُمْ قَرَابَات مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، وكَانُوا لا يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِمْ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي أَنْ يُسْلِمُوا إِذَا احْتَاجُوا، وَيَقُولُونَ: مَا لَمْ تُسْلِمُوا لا نُعْطِيكُمْ شَيْئًا، فَنَزَلَتِ الآيَةُ بِسَبَبِ أُولَئِكَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْر: كَانُوا يَتَصَدَّقُونَ عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَلَمَّا كَثُرَ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ نَهَى رَسُولِ اللَّهِ(ﷺ) عَن التَّصَدُّقِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ كَيْ تَحْمِلَهُمُ الْحَاجَةُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ.

وَالرِّوَايَة الثَّالِثَة: عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ(ﷺ) لا يَتَصَدَّق عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَتْ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ [(٢)].

قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ الصَّدَقَةُ الَّتِي أُبِيحَتْ لَهُمْ حَسَبَ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الآثَارُ هِيَ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ، وَأَمَّا الْمَفْرُوضَةُ فَلا يُجْزِئُ دَفْعُهَا لِكَافِرٍ[(٣)].

---

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢/ ٢٧٤، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ٩١.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ١٩/٥ وما بعدها، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ٩٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٣٣٧.

وقد فسر العلماء(الخير) في الآية بالمال [1]، يقول مقاتل:" ﴿ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ يعني المال ﴿ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ يعني المال ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني توفر لَكُمْ أعمالكم "[2]. والخير في هذه الآية- كما فسره العلماء- المال، يدل علي ذلك السياق الحالي واللغوي، فأسباب النزول التي سبق ذكرها تدل على أن الخير هنا: المال، وسياق الآيات الكلي(القبلي والبعدي) يدل على ذلك أيضًا، فقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ.. ﴾ الآية متوسطة بين آيات الحث على الإنفاق، مبالغة في حمل المخاطبين على الامتثال، فنجد الآيات السابقة بدءًا من قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١) ﴾ تحث على الإنفاق والعطاء من طيبات الكسب، وَقَدْ أَرْشَدَ اللهُ الْمسلمين في هذه الآيَةِ إِلَى عدم التَّحَرُّجِ مِنَ الإِنْفَاق على الْمُشْرِكِينَ لأَنَّهُمْ غَيْرُ مَهْدِيِّينَ؛ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ بِالْفَقِيرِ وسدّ خَلَّته لا ينبغي أَنْ تَتَوَقَّف على إِيمَانِهِ، بل من شَأْنِ الْمؤمن أَنْ يكون خَيْرُهُ عَامًّا، وأن يكون سابقًا لسائرِ النَّاسِ بالكرم والفضل، فالآية على هذا لا تعتبر بعيدة عما قبلها وما بعدها من آيات الإنفاق، إذ هي لإباحة الإنفاق على من خالفنا في الدين، فالذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التي وردت في الحض على بذل المال في وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل (تُنْفِقُونَ) ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب،

(١) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٣٩، وبحر العلوم للسمرقندي ١٨١/١، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي صـ١٩٠، والكشاف للزمخشري ٣١٧/١، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٢٢/١.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٢٢٤.

وجِيءَ بِهِ مَرَّةً في صيغة النَّفْي والاستثناء؛ لأَنَّهُ قصد الخبر بمعنى النَّهْي، أَي عن أَنْ يُنْفِقُوا إِلا لابتغاء وَجْهِ اللَّه.

والسياق البعدي- كذلك- يدل علي أن الخير في الآية المال، فبعد هذا التحريض على بذل الأموال في وجوه الخير، وكان ما مضى شاملاً للمؤمن وغيره بيّن أن محط القصد في الحثّ عليها المؤمن، فنجد أن الله ـ تعالى ـ خص بالإنفاق طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسد حاجتهم ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾، ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٤) ﴾.

ومما يدل- أيضًا- أن الْخَيْر في الآيَةِ الْمال أنّ الخير اقترنَ بذكر الإِنْفَاق، فَهَذِهِ الْقَرِينَة تَدُلُّ على أنّه الْمال.

٩- قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. (آل عمران: ١٠٤).

بعد الأسلوب الرائع الذي تعجب فيه القران من كفر أهل الكتاب بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران:٩٨) ونهي المسلمين أن يطيعوهم، وأن يتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَأن يعْتَصِمُوا بِحَبْلِه جَمِيعًا وَلا يتَفَرَّقُوا، وَأن يذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا في الدين، أمرهم الله في هذه الآية- بعد استكمال

إيمانهم في أَنفسهم- أن يمتد خيرهم إلى غيرهم، بأن يكون منهم جماعة متفقهة في الدين يدعون الناس- على بصيرة- إلى الإسلام، فيأْمرون بكل ما عُرِف حسنه عقلاً وشرعًا، وينْهَوْنَ عن كل ما هو منكر كذلك.

وقد فسر كثير من العلماء لفظ (الخير) في الآية بالإسلام [1]، يقول الطبري عند تفسيره لهذه الآية:" يَعْنِي بِذَلِكَ ــ جَلَّ ثناؤُهُ ــ ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أُمَّةٌ ﴾ يَقُولُ: جَمَاعَةٌ ﴿ يَدْعُونَ ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَى الْخَيْرِ ﴾ يَعْنِي إِلَى الإِسْلامِ وَشَرَائِعِهِ الَّتِي شَرَّعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ "[2]. وعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ قَوْلُهُ: يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، قَالَ: إِلَى الإِسْلامِ[3]. وعَن أبي الْعَالِيَة قَالَ: كل آية ذكرها الله فِي الْقُرْآن فِي الأَمر بِالْمَعْرُوفِ فَهُوَ الإِسْلَام، وَالنَّهْي عَن الْمُنكر فَهُوَ عبَادَة الشَّيْطَان [4].

فقوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ يعني إلى" الدين، أصوله، وفروعه وشرائعه"[5].

وَمما يدل على أن معنى الخير الدعوة إلى الإسلام، أَنَّ الخير اسْمٌ يجمع خصال الإسلام، ففي حَدِيث حذيفة[قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ][6] ولذلك يكون عَطْف الأمر

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي١٢٢/٣، ومعالم التنزيل للبغوي ١/ ٤٨٦، واللباب في علوم الكتاب ٥/ ٤٥١.

(٢) جامع البيان للطبري ٥/ ٦٦١.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣/ ٧٢٧.

(٤) ينظر: الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٨٩.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي صـ ٩٧١ .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٧٥/٣-ح/٥١ (كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ).

بالمعروف والنَّهي عن المنكر عليه من عَطْفِ الشَّيء على مغايره، وهو أَصْلُ العطف.

ومما يدل على أن الخير في الآية الإسلام السياق القبلي، فالله ــ تعالى ــ في الآيات السابقة تعجب من أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله، وأخبر الَّذِينَ آمَنُوا أنهم إِنْ يُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ كَافِرِينَ، ثم أمر الَّذِينَ آمَنُوا أن يتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا يَمُوتُنَّ إِلا وَهُمْ مُسْلِمُونَ، ثم جاءت هذه الآية داعية المسلمين أن يكونوا دعاة إلى الإسلام.

والسياق البعدي- أيضًا- يدل على أن مَعْنَى الْخَيْر الدّعَوة إِلَى الإِسْلامِ، وهو قوله ــ تعالى ــ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾ فالله ــ تعالى ــ نهى المؤمنين أن يكونوا مثل الذين اختلفوا في كتبهم وتفرقوا فرقًا، فالْمَنْهِيّ عَنْهُ هُوَ الْحَالَةُ الشَّبِيهَةُ بِحَالِ الَّذِينَ تفرّقوا وَاخْتلفُوا، وَأُرِيد بالّذين تفرّقوا وَاخْتلفُوا الّذين اخْتلفُوا فِي أُصُولِ الدِّين، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الدَّلائِلِ الْمَانِعَةِ مِنَ الاخْتِلَافِ وَالافْتِرَاق، وَقُدِّمَ الافْتِرَاقُ عَلَى الاخْتلافِ لِلإِيذَانِ بِأَنَّ الاخْتلافَ عِلَّةُ التَّفَرُّق، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الاخْتلافَ الْمَذْمُومَ وَالَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الافْتِرَاق، هُوَ الاخْتِلافُ فِي أُصُولِ الدِّيَانَةِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى تَكْفِيرِ بَعْضِ الأُمَّةِ بَعْضًا، أَوْ تَفْسِيقِهِ، دُونَ الاخْتِلافِ فِي الْفُرُوعِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى اخْتِلافِ مَصَالِحِ الأُمَّةِ فِي الأَقْطَارِ وَالأَعْصَارِ، وَهُوَ الْمُعَبِّرُ عَنْهُ بِالاجْتِهَادِ [1]. ثم قارن الله ــ تعالى ــ بين جزاء من أسلم وجزاء من كفر، فقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) ﴾.

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤/ ٤٣.

ومن العلماء من ذهب إلى أن لفظ (الْخَيْر) في الآية عام فهو يشمل جميع الخيرات وأعمال البر، والعمل بطاعة الله [١]. فالدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطف الخاص على العام للإيذان بفضله [٢].

وأرى أن تفسير(الْخَيْرِ) في الآية خاص بالإسلام أولى؛ لأنه بالإضافة إلى السياقات سابقة الذكر، فالله ــ تعالى ــ يأمر في الآية بأن تكون هناك طائفة خاصة تدعو إلى الخير(أعني هنا إلى الإسلام)، وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، فمن في قوله:(منكم) تبعيضيه، وهذه الطائفة يتوفر فيها من صفات العلم والمعرفة ما يؤهلها إلى تحمل هذه الدعوة على وجهها الصحيح، فالجاهل- ربما بدون قصد- قد يخطأ في هذا فينقل صورة الإسلام على غير وجهها الصحيح، وربما نهى عن المعروف وأمر بالمنكر، وإلا فالأمة كلها مطالبة بالخير على وجه العموم. فالله تعالى أمر المؤمنين أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، وقد نص الطبري على أنهم" خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة "[٣]. ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك؛ إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالمًا.

وعمومًا فلا تعارض بين من فسر(الخير) في الآية بالإِسْلام ، ومن فسره بالعموم ليشمل جميع أعمال البر، والعمل بطاعة الله وما فيه صلاح ديني أو دنيوي، فهذه هي دعوة الإسلام.

---

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ١/ ٢٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٣١٢/١.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٢/ ٣٢، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦٧/٢.

(٣) جامع البيان للطبري ٥/ ٦٦٢، وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٤٨٥.

١٠- قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ (آل عمران).

في الآيات السابقة لهاتين الآيتين حث الله- تعالى- أهل الكتاب على الإيمان، فقال: ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ(١١٠) ﴾ فالله ــ تعالى ــ بين أن أهل الكتاب مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ، ثم أخذ ــ تعالى ــ في تعداد وتفصيل أفعال وقبائح الفاسقين منهم ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ... ﴾ (آل عمران:١١١)، ثم أخذ في تعداد صفات المؤمنين منهم، فقال: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ والضمير في لَيْسُوا لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وفسر كثير من العلماء(الخيرات) في الآية على عمومها من الطاعة والعمل الصالح، فقوله تعالى: ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي يبادرون إلى الطاعات، والأعمال الصالحة [1]. فالخيرات هي كل قول وعمل صالح من سائر القربات. وقوله تعالى: ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ وصف بأنهم متى دعوا إِلَى خَيْرٍ مِنْ نَصْرِ مَظْلُومٍ، وَإِغَاثَةِ مَكْرُوبٍ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ، أجابوا، ومما يدخل فِي الْخَيْرَاتِ أن يكون المرء مغتنمًا للخمس، كما قال النبي (ﷺ):[اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَغِنَاكَ

(١) ينظر : تنوير المقباس صـ٥٤، وبحر العلوم للسمرقندي ١/ ٢٤٠، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٣١٣/١.

قَبْلَ فَقْرِكَ][1]، فيكون متى أراد أن يصنع خيرًا بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضًا مسارعة في الخيرات [2]. فالْمُسَارَعَةُ فِي الْخَيْرَاتِ صِفَةٌ جامعةٌ لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير، فهي تَشْمَلُ أفعالهم الْمُخْتَصَّة بهم، وَالأَفْعَال الْمُتَعَدِّيَة مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، وإيثارُ كلمةِ (فِي) بدل (إلى) للإيذان بأنهم مستقِرّون في أصل الخيرِ متقلّبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لا أنَّهم خارجُون عنها منتهون إليها[3].

وفسر مقاتل بن سليمان(الخيرات) في الآية بشرائع الإسلام [4].

والسياق القبلي يرجح القول الأول، قال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ حيث تقدم ذكر صفة الإيمان، ثم عطف صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم صفة المسارعة في الخيرات، والأصل في العطف المغايرة.

والله ــ تَعَالَى ــ لَمَّا ذكر هذه الطائفة من أهل الكتاب وصفها بصفاتٍ وخصائصَ من تلاوة آيَاتِ اللَّهِ باللَّيْلِ ساجدين، ومن الإيمَانِ باللَّه واليوم الآخِر، ولما وصفهم بالاستقامة في أنفسهم وصفهم بأنهم يقوّمون غيرهم، فقال: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي مجددين ذلك مستمرين عليه، ولما ذكر فعلهم للخير ذكر نشاطهم في جميع أنواعه، فقال: ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي(ت:٣٠٣هـ) في السنن الكبرى ١٠/٤٠٠-ح/١١٨٣٢(كتاب:المواعظ) حققه: حسن عبد المنعم شلبي- مؤسسة الرسالة – بيروت- ط١-١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١/ ٤٩٤.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢/ ٧٤.

(٤) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٢٩٦.

واختيار صيغة المفاعلة(يسارعون) للمبالغة في سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير، وألوان البر، والوصف بالصَّلاح زيادة على الوصف بالإسلام، وهذا يدل على أن(الخيرات) في الآية عامة، وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ إشارة إلى أنهم بهذه المزايا، وتلك الصفات قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله ــ تعالى ــ وذكر أن أكثرهم فاسقون، فهذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة، ثم بشرهم سبحانه بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه، ولن يضيع شيئًا مما قدموه من أعمال صالحة، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال: ﴿ وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ لأنه سبحانه عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملاً، و(ما) هنا شرطية، ولذا جزم الفعل بعدها، و(مِن) هنا تفيد العموم، أي: إن يفعلوا أي خير قليلاً كان أو كثيرًا فلن يحرموا ثوابه، وقد أكد احتسابه بـ(لن) لأن النفي بـ(لن) يفيد التوكيد، وهذا كله يؤكد أن الخيرات في الآية عامة [1].

١١- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.(النساء: ١٩).

بعد أن أمر الله الرجال بأن يعطوا النساء الصداق فقال: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء: ٤) عاد هنا ليبين حرمة وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة، كما حرم العضل الذي تتعرض له المرأة ويتخذ أداة للإضرار بها-

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣١٢، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي ٢/ ٢٢٨ – دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة – القاهرة- ط١- ١٩٩٧م.

إلا في حالة الإتيان بالفاحشة- وجعل للمرأة حريتها في اختيار من تعاشره، وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال- حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة- فالمرء لا يطاوع انفعاله الأول فيطلق المرأة، فما يدريه فلعل في الصبر عليها خيرًا مخبوءًا، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه، فربما كرهت النفس ما هو أصلح وأدنى إلى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك، وربما يكون الشيء الذي كرهته اليوم سيجعل الله فيه خيرًا كثيرًا في المستقبل، قال تعالى: ﴿ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٦) فالعلاقة الزوجية مبنية على المودة والرحمة والألفة، وفى هذه الوصية الكريمة، تنفير من الطلاق، فربما كان الشرّ كلّه كامنًا وراءه.

قوله تعالى: ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قِيلَ: هَذَا خِطَابٌ لأَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ خِطَابٌ لِلأَزْوَاجِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ لأَنَّ الزَّوْجَ هُوَ الَّذِي أَعْطَاهَا الصَّدَاقَ، وَكَانَ يَكْرَهُ صُحْبَةَ زَوْجَته وَلَهَا عَلَيْهِ مَهْرٌ، فَيَحْبِسُهَا وَيَضْرِبُهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ مِنْهُ، وهذا قول قَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالضَّحَّاكُ، قَالَ ابْن عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ تَكُونُ لَهُ الْمَرْأَةُ وَهُوَ كَارِهٌ لِصُحْبَتِهَا وَلَهَا عَلَيْهِ مَهْرٌ فَيُضَارُّهَا لِتَفْتَدِيَ وَتَرُدَّ إِلَيْهِ مَا سَاقَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَهْرِ، فَنَهَى اللَّهُ ــ تَعَالَى ــ عَنْ ذَلِكَ (١).

وعلى كل، فقد أَمَرَ اللَّهُ ــ سُبْحَانَهُ ــ الرجال بِحُسْنِ صُحْبَةِ النِّسَاءِ إِذَا عَقَدُوا عَلَيْهِنَّ، قَالُ تَعَالَى: ﴿وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيْ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ، وَذَلِكَ تَوْفِيَةُ حَقِّهَا مِنَ الْمَهْرِ وَالنَّفَقَةِ، وَأَلا يَعْبَسَ فِي وَجْهِهَا بِغَيْرِ

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٦/٣، ومعالم التنزيل للبغوي ١/ ٥٨٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٥٦٨/٣.

ذَنْب، وَأَنْ يَكُونَ مُنْطَلِقًا فِي الْقَوْلِ لا فَظًّا وَلا غَلِيظًا وَلا مُظْهِرًا مَيْلاً إِلَى غَيْرِهَا ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أَيْ لِدَمَامَةٍ أَوْ سُوءِ خُلُقٍ مِنْ غَيْرِ ارْتِكَابِ فَاحِشَةٍ أَوْ نُشُوزٍ، فَعَسَى أن يؤول الأَمْرُ إِلَى أَنْ يَرْزُقَه اللَّهُ مِنْهَا أَوْلادًا صالحين، ومِنْ فصاحة القرآن العموم الذي في لفظَةِ (شيء) من قوله: ﴿ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ لأنه يطَّرد هذا النَّظَرُ في كلِّ ما يكرهه المرءُ ممَّا يجمُلُ الصبْر عليه، ويحسُنُ، إذ عاقبةُ الصَّبْر إلى خيرٍ إذا أريد به وَجْه اللَّهِ [1].

وقد فسر كثير من أهل التأويل وعلماء التفسير الخير الكثير في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ بالولد الصالح، قال السُّدِّيُّ: الخيرُ الكثيرُ في المرأة: الولَد الصالح، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالْخَيْرُ الْكَثِيرُ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهَا فَيُرْزَق الرَّجُلُ وَلَدَهَا، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِي وَلَدِهَا خَيْرًا كَثِيرًا [2].

ومن العلماء من فسر الخير في الآية تفسيرًا آخر، وهو أن قوله: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ يعني أردتم فراقهن {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} يعنى في الكره خيرًا كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ (النساء:١٣٠) فعسى الرَّجُل أن يكره المرأة فيطلقها فيتزوجها غيره، فيجعل اللَّه للذي يتزوجها فيها خيرًا كثيرًا، فيرزقه منها لطفًا وولدًا [3].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٨/٥، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١٩٦/٢.

(٢) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٦٧، وجامع البيان للطبري ٦/ ٥٣٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣/ ٩٠٥، والنكت والعيون للماوردي ٤٦٦/١، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٤٠٠/٦.

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٣٦٥، والدر المنثور للسيوطي ٢/ ٤٦٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٥٠٩.

ويبدو أن هذا التفسير خلاف الأولى؛ لأن سياق الآية يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المعنى الْحَثّ على إمساكهنَّ وعلى صُحْبَتِهِنَّ، فالآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها؛ لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلبًا للثواب، وأنفق عليها وأحسن صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، ولذلك جاء بعده: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ فهذا الْقَوْلُ بعيدٌ مِنْ سياق الآية، كما يَدُل عليه ما قبلها وما بعدها.

ويبدو أن تفسير ابْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ الْخَيْر بِالْوَلَد الصَّالِح هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لا الْحَصْرِ [1]، ويكون الخير في الآية عام، وتدخل ولادة الأولاد الصالحين في الخير دخولاً أوليًا، فيكون أَعْظَم هذا الخير وِلادة الأولاد النُّجَبَاء، فربّ امرأة يملّها زوجها ويود فراقها ثم يجيئه منها ما تقرّ به عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك،"حكى أن أبا الإمام مالك(ﷺ) تزوج امرأة فدخل عليها فوجدها سوداء، فبقي متفكرًا ولم يقربها، فقالت له: هل استخرت ربك؟ فقال: نعم، فقالت: أَتَتَّهمُ ربك، فدخل بها، فحملت بالإمام مالك صاحب المذهب "[2].

لكن هذا لا يمنع أن يكون المراد بالخير استحقاق الثواب الجزيل في العقبى والثناء الجميل في الدنيا للإنفاق عليهن والإحسان إليهن على خلاف الطبع، فالخير يمكن أن يكون دنيويًا وأخرويًا، ومن الخير الكثير أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته، فتكون من أعظم أسباب سعادته وسروره في انتظام معيشته، وحسن خدمته، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض، أو بالفقر، والعَوَزِ فتكون خَيْر سلوى وعون في هذه الأحوال، فيجب على الرجل أن يتذكر مثل ذلك، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته في الحال، والاستقبال، وَقَلَّ أَنْ تَرَى

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣/٥٧٠.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ١/ ٤٨٢ وما بعدها.

مُتَعاشرين يَرْضى كُلٌّ واحدٍ منهُما جميعَ خُلُق الآخَر، وَفِي صحيح مُسلم:[لا يفرك مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ][1][2].

ومما يدل على عموم لفظ الخير في الآية أنه جاء نكرة في سياق جواب الشرط، كما أنه جاء موصوفًا بالكثرة (خَيْرًا كَثِيرًا) مما يدل على العموم.

١٢- قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٢٧).

هذه الآية- وما تلاها من آيات ثلاث- رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء واليتامى، وكان المسلمون قد بقيت لهم أحكام سبق لهم السؤال عنها، فلم يجبهم الرسول(ﷺ) انتظارًا للوحي، وقوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ مَعْنَاهُ يَطْلُبُونَ مِنْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْفُتْيَا فِي شَأْنِهِنَّ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: ويفتيكم أيضًا فيما يتلى عليكم في شأن يتامى الإناث اللاتي لا تؤتونهن أيها الأولياءُ ما كُتِبَ لهن من الميراث والصداق، وقد رغبتم في الزواج بهن، طمعًا في الميراث والصداق، فقد أوجب عليكم فيما نزل بشأنهن أول السورة أن تقسطوا في شأنهن، بألا تطمعوا في أموالهن الموروثة، وأن تعطوهن الصداق، وتعدلوا بينهن وبين ضراتهن في القسم والنفقة وحسن العشرة، وقوله: ﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: ويفتيكم فيما يتلى عليكم في شأن المستضعفين من الأولاد والصغار اليتامى- ذكورا وإناثًا- فقد أوجب عليكم- فيما

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ١٠٩١-ح/٦١ (كِتَابُ الرِّضَاعِ، بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ) .

(٢) ينظر: تفسير المراغي ٤/٢١٤.

سبق- أن تحافظوا على أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، وأوجب عليكم أن تؤدوا أموالهم إليهم عند بلوغهم رشدهم دون مماطلة، ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ أي: وما تفعلوا - أيها الأولياءُ- من خير في حقوق من تقدم ذكرهم، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا، يعني أنه مِمَّا لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ ــ تَعَالَى ــ وَلا يَنْسَى الإِثَابَةَ عَلَيْهِ، كَسَائِرِ أَفْعَالِ الْخَيْرِ [1].

سبب نزول هذه الآية: اختلف في سبب نزول هذه الآية على قولين: فقيل: أنهم كانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء والأطفال، فلما فرض الله المواريث في هذه السورة، شق ذلك عليهم، فسألوا رسول الله (ﷺ) عن ذلك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقيل: عَنْ عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْر أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ــ تَعَالَى ــ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامى﴾ قَالَتْ: يَا ابن أُخْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَة تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا، تشْرِكهُ فِي مَالِهِ وَيُعْجِبُهُ مَالَهَا وَجَمَالَهَا، فَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غيره، فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ وَيَبْلُغُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاق وَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ، وَأَنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ــ تَعَالَى ــ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [2].

وبناء على سياق الآية وما قبلها وما بعدها من آيات وأسباب نزولها(سياقي المقال والمقام) فقد فسر بعض العلماء لفظ (الخير) في الآية تفسيرًا خاصًا بالمذكورين في الآية، يقول مقاتل:" ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مما أمرتم به من

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء ٢/ ٩٢٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥٣١/١ وما بعدها، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ ١٨٧.

قسمة المواريث "[1]. فقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني "من إِحْسَان إِلَى هَؤُلاءِ"[2]. يقول أبو حيان:" ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ النِّسَاء ويتامى النِّسَاء وَالْمُسْتَضْعَفين مِنَ الْوِلْدَانِ، وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ــ تَعَالَى ــ يَعْلَمُ مَا يفْعَل مِنَ الْخَيْرِ بِسَبَبِ مَنْ ذَكَرَ، فَيُجَازِي عَلَيْهِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ "[3]. فالمقصود بالخير حقوق المذكورين ممن تقدم ذكرهم.

ومن العلماء من جعل (الخير) عام، وأن قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وعد لمن آثر الخير فيما سبق وفي غيره، وأن الآية تهييج على فعل الخيرات وَامْتِثَال الأمر، وحثّ على الإحسان عمومًا سواء للنساء واليتامى أو لغيرهم كان الخير متعديًا أو لازمًا، وَأَنَّ اللَّهَ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أوفر الجزاء وأتمه [4].

ومما يدل على عموم لفظ(الخير) في الآية أنه جاء منكرًا في سياق جملة الشرط، فيكون المعنى: وما تفعلوه من خير على الإطلاق، ويندرج فيه ما يتعلق بحقوق هؤلاء المذكورين اندراجًا أوليًا، فالآية اشتملت على ألوان من الترغيب بشأن الإحسان إلى المستضعفين من النساء والولدان واليتامى خاصة؛ حتى تعيش الأمة عيشة هانئة، يشعر ضعيفها برعاية قويها له، ويشعر قويها برضا ضعيفها عنه، وحثّ على فعل الخير، والإحسان عامة.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٢.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٨١.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٨٥.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري ٥٤٧/٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٣٧٧، ونظم الدرر للبقاعي ٤١٨/٥.

١٣- قوله تعالي: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء ١٤٩)

اختلف المفسرون في معني(الخير) في هذه الآية على أقوال –

فقيل: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ يعني: إِنْ تَقُولُوا جَمِيلاً مِنَ الْقَوْلِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ، فَتُظْهِرُوا ذَلِكَ شُكْرًا مِنْكُمْ لَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ حُسْنٍ إِلَيْكُمْ [١].

وقيل: إن الخير هنا: الحسنة، يقول السمرقندي:" ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ يعني إن تظهروا حسنة ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني الحسنة ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ يعني يتجاوز عن ظالمه ولا يجهر بالسوء عنه، فهو أفضل؛ لأن اللَّـهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيرًا "[٢].

وقيل: المراد بالخير: المال، والمعنى: إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهرًا أو تخفوها فتعطوها سرًا، أو تعفوا عن مظلمة ﴿ فَإِنَّ اللَّـهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، يعني: لم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام [٣].

وفسر كثير من علماء التفسير(الخير) في الآية بما هو أعم مما سبق، فقوله ــ تعالى ــ: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ قَال ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ من أعْمَال البِرِّ كَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ، والضيافة، والصلة [٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٧/ ٦٣٢ وما بعدها، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٢/ ١٥١٢.

(٢) بحر العلوم للسمرقندي ١/ ٣٥٢، وينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣/ ٤٠٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٧١٧/١.

(٣) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤٤٢/١، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٠٧/١.

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/ ٤٩٢، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤/ ١١٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٠٧/١.

فالمراد بالخير: ما يعم كل ضروبه؛ من الصدقة، والكلمة الطيبة، والثناءِ الجميل، والأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من خصال الخير الكثيرة، والعفو عن المسيء داخل في باب هذا الخير الواسع، ومندرج تحت عمومه الشامل، وإنما أَفرده بالترغيب فيه بعد الترغيب في الخير بقوله: ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ تنبيهًا على علو منزلته ومكانته في الخير(١).

وعلي هذا فالخير في الآية جميع ما يفعله الإنسان مع غيره من الإحسان، إما إحسان يبديه أو إحسان يخفيه، وهذا يشمل كل خير قوليّ وفعليّ، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

ويبدو أن الرأي الراجح هو تفسير الخير في الآية بهذا العموم؛ إذ إن المعاشرة مع الخلق تدور علي أمرين: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وهو إشارة إلى إيصال النفع ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ وهذا إشارة إلى دفع الضرر، يقول الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية:" اعْلَمْ أَنَّ مَعَاقِدَ الْخَيْرَاتِ عَلَى كَثْرَتِهَا مَحْصُورَةٌ فِي أَمْرَيْنِ: صِدْقٌ مَعَ الْحَقِّ، وَخُلُقٌ مَعَ الْخَلْقِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ مَحْصُورٌ فِي قِسْمَيْنِ إِيصَالُ نَفْعٍ إِلَيْهِمْ وَدَفْعُ ضَرَرٍ عَنْهُمْ، فَقَوْلُهُ: ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَوْ تَعْفُوا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، فَدَخَلَ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ "(٢).

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر٢/ ٩٥٢ – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية–ط١– ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١/ ٢٥٤.

ومما يدل- أيضًا- علي عموم لفظ (الخير) في الآية السياق اللغوي، وهو إيراد لفظ الخير في سياق جملة الشرط منكرًا، وكذا مقابلته بالعفو عن الإساءة في قوله: ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ وهي تشمل كل عفو عن أي إساءة.

١٤- قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

خاطب الله- سبحانه- رسوله في هذه الآية بأنه قد أنزل عليه القرآن بالحق، وأنه حق لا سبيل إلى تحريفه، فقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ..﴾ الآية. والمعنى: وأنزلنا إليك يا محمَّد القرآن قائمًا ومتلبسًا بالحق الذي لا ريب فيه، مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية، فلا يختلف عنها- ولا تختلف عنه- فيما جاءَ من أصول العقائد والشرائع ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، كما أنه رقيب على سائر الكتب السماوية التي تقدمته قبل تحريفها، وَمُنَبِّهًا إلى ما وقع فيها من تحريف، ثم قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي جماعة متفقة على شريعة واحدة في جميع الأزمنة من غير اختلاف بينكم في شيءٍ من فروع الأحكام الدينية ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيعرف المطيع من غيره ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ حض منه- سبحانه- لعباده على الاجتهاد في فعل الطاعات، أي إذا

كان الأمر كما وصفت لكم فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة التي تسعدكم في الدنيا والآخرة؛ لتنالوا رضا الله تعالى [١].

بناء على السياق العام للآية وما فيه من حث على المبادرة إلى عموم الخير فقد فسر أهل التأويل لفظ(الخيرات) بكل ما أمر الله ــ تعالى ــ به من الأعمال الصالحة وطاعة الله [٢]، يقول ابن عباس:" ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ فسابقوا يَا أمة مُحَمَّد(ﷺ) الأُمَم فِي السّنَن والفرائض والصالحات، وَيُقَال: بَادرُوا بالطاعات يَا أمة مُحَمَّد "[٣]. ويقول ابن كثير:" ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادِرَةِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ طَاعَة اللَّهِ وَاتِّبَاع شَرْعِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبلَهُ، وَالتَّصْدِيقُ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ "[٤].

فسياق الآية يدل على أن الخير عام في جميع الطاعات وما أمر الله ــ تعالى ــ به؛ إذ لا يوجد مخصص لهذا الخير، كما أن لفظ الاستباق يدل على المسارعة إلى كل ما فيه خير ونفع، وعلى هذا فالآية فيها من تأكيد الترغيب في الإذعان للحق وتشديدِ التحذير عن الزيغ ما لا يخفى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ أي: فسارعوا إلى ما هو خيرٌ لكم في الدارين من العقائد الحَقَّة والأعمالِ الصالحة

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء ٢/ ١٠٨٦، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي ٤/ ١٨٤.

(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣٩٦/١، والكشف والبيان للثعلبي ٧٤/٤، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٢/ ١٩٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٥٨/٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٥٥٥/١.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٩٥ ، وينظر: تفسير مقاتل ٤٨٢/١، وجامع البيان للطبري ٥٠٠/٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١١٨.

المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازًا للفرصة وإحرازًا لسابقةِ الفَضْل والتقدم.

١٥- قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التوبة : ٨٨).

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطًا واضحًا لا يحتاج إلى بيان، حيث يقارن الله- تعالى- بين طبيعتين، طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء، فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول أي: الغنى والسعة، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل، جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيه المقدرة التي وهبها الله لهم، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع الخوالف ممن لا طول لهم ولا حول من المرضى وأصحاب العاهات والعلل والأطفال والنساء والعبيد، ثم انتقل القرآن إلى المقارنة بطراز آخر ونوعية مختلفة ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد اختلف العلماء في معنى (الخيرات) في الآية على أقوال -

القول الأول:{الْخَيْرَات} أي: الزوجات الحسان في الجنة وهن الحور، قاله الْحَسَن. ودَلِيلُهُ قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (الرحمن:٧٠) قال: الخيرات هن الجواري الفاضلات الحسان. وروى عن ابن مسعود نحو ذلك [١].

القول الثاني: يجوز أن تكون ﴿ الْخَيْرَات﴾ غنائم الدنيا ومنافع الجهاد، على أن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٢/٨٠، والكشف والبيان للثعلبي ٥/٨٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٢٢٤.

خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (التوبة: ٨٩) بياناً لما لهم من المنافع الأخروية، ويخص ما قبل بمنافع الدنيا بقرينة المقابلة [١].

القول الثالث: أن الْخَيْرَات، هِيَ خيراتُ الآخرة، وَذَلِكَ نِسَاؤُهَا وَجَنَّاتُهَا وَنَعِيمُهَا، والمثوبات العظمى والدرجات العليا عند الله، وذلك بناء على أن قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ (التوبة : ٨٩) تَفْسِيرٌ لِلْخَيْرَاتِ؛ إِذْ هُوَ لَفْظٌ مُبْهَمٌ، فهو بيان لما لهم في الآخرة من الخيرات [٢].

اقول الرابع: حُكِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْخَيْرَات لا يَعْلَمُ مَعْنَاها إلا اللَّهُ كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجْدَةِ:١٧][٣]. ويعلق أحد العلماء على هذا القول، فيقول:" قلت مراد ابن عباس أنه يعم جميع المنافع "[٤].

القول الخامس: أَنَّ الْخَيْرَات هي: منافع الدارين من النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة [٥]، أي لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر، ومحو كلمة الكفر، وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل، والتمتع بالغنائم، والسيادة في الأرض دون المنافقين الجبناء، الذين ألفوا

---

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٢/٣٩٠، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/٣٣٦، وروح المعاني للألوسي ٥/٣٤٤.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري١١/٦١٨، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ٥/٤٤٣، وتفسير القرآن لابن كثير٤/١٧٣.

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي ٢/ ٣٧٨.

(٤) التفسير المظهري للمظهري ٤/ ٢٧٨.

(٥) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣/ ٩٣، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢/ ٣٩٤، وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ٢/ ٢٢٥، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٤/٩١.

الذلة والهوان، ولم يكونوا أهلاً للقيام بهذه الأعباء [١]. يقول ابن كثير:" قَوْلُهُ: ﴿وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ الْخَيْرَات، يَتَنَاوَلُ مَنَافِعَ الدَّارَيْنِ، لأَجْلِ أَنَّ اللَّفْظَ مُطْلَقٌ "[٢].

ويبدو أن هذا القول أقرب للصواب؛ فهو يشمل الأقوال السابقة، كما أن اللفظ مطلق، وتحليته بـ(ال) يدل استغراقه لجميع منافع الدارين، وعلى هذا فسياق الخير اللغوي في الآية يدل على العموم، وعبر بالجمع (الْخَيْرَات) للدلالة على كثرة ما يمنحهم الله من خير وتنوعه، فخير في الرزق، وخير في نيل المطالب، وخير في النصرة، وخير في العزة، وخير في منع تحكم الأعداء، وخير في رضا الله تعالى، وخير في صلاح الولد، وخير في الهداية... إلى آخره من الخيرات في الدنيا، والخير الأكبر في الآخرة [٣]. أما قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ إلى آخره، كلام مستأنف مسوق لبيان ما لهم من الخيرات الأخروية؛ أي: هيأ الله ــ تعالى ــ لهم في الآخرة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بدليل قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ المذكور من إعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة هو ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم الذي لا فوز وراءه.

١٦- قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل:٣٠).

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطًا واضحًا لا يحتاج إلى بيان؛ ولا شك أن الأشياء تتميز بأضدادها، فبعد أن بيّن الله ــ عزّ وجل ــ موقف الأشقياء المستكبرين الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله مما أنزل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ

(١) ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري ١١/ ٣٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٦/ ١١٩.

(٣) ينظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة ٧/ ٣٤٠٥.

رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (النحل:٢٤) وبينت عقوبتهم على هذا الموقف، تلتها هذه الآيات لبيان حال السعداء الذين أحسنوا القول لسائليهم والعمل لربهم، فأجزل لهم ربهم خيرى الدنيا والآخرة، ليتضح الفرق، وتتجلى أسس العدل، فالآية جاءتْ هُنَا لمقابلة حال الكفار بِحَالِ الْمؤمنين وحُسن عاقبتهم، فَافتُتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قِصَّة الْكَافرين، فجَاء التنظير بين القصَّتين في أبدع نظْمٍ.

وقد اختلف في معنى(الخير) الذي أنزله الله على أقوال –

القول الأول: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: أنزل الله– عز وجل– خيرًا : أنزل كتابًا يأمر فيه بالخير وينهى عن الشر، ثم انقطع الكلام، ثم قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل فِي هذِهِ الدُّنْيا لهم حَسَنَة {وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ} يعني الجنة أفضل[١]. وعلى هذا فَالْمُرَادُ بِالْخَيْر الْقُرْآن، ففيه الخير كله، فهو رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به، وهم في جوابهم هذا يخالفون الكفار، حيث أنكروا إنزاله بما أجابوا به بقولهم: أساطِير الأوَّلين.

القول الثاني: ﴿ قَالُوا خَيْرًا﴾قال ابن عباس: يريد ثوابًا؛ يعني أنهم إذا سُئلوا عن ما أنزل الله على محمد(ﷺ)، قالوا: أنزل عليه الخير عن ثواب المحسن، فقالوا: أنزل ثوابًا، أي ذكره، ثم فَسَّرَ ذلك الخير؛ فقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [٢].

القول الثالث: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ من قَوْلِهم: ﴿ خَيْرًا﴾ أن يكون جَامِعًا لِكَوْنِهِ حقًّا وَصَوَابًا، وَلِكَوْنِهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِصِحَّتِهِ وَلُزُومِهِ، فَهُوَ بِالضِّدِّ مِنْ قَوْلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ، أَنَّ ذَلِكَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيب [٣].

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٤٦٧.

(٢) ينظر: التَّفْسِير البَسِيْط للواحدي ١٣/ ٥١.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٠/ ٢٠١.

القول الرابع: ﴿ قَالُوا خَيْرًا﴾ أَيْ: أَنْزَلَ خَيْرًا، أَيْ: رَحْمَةً، وَبِرْكَةً، وَحُسْنًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ وبرسوله [1].

القول الخامس: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا خَيْرًا﴾ فوصفوا المنزَّل بأنه خير، ويشمل القرآن كما ذكر، والشرائع الإسلامية كلها، وهي ما فيه خير صلاح الدنيا والآخرة [2]. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سُئِلُوا عَنِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَأَرْشَدُوا السَّائِلِينَ وَلَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي الكشف عن حقيقة الْقُرْآنِ بِأَوْجَزِ بَيَانٍ وَأَجْمَعِهِ، وهو كلمة(خَيْرًا) المنصوبة، فَإِنَّ لفظها شاملٌ لِكُلِّ خيرٍ في الدُّنيا وكُلِّ خَيْرٍ في الآخرة، والدليل على أن الخير يعم منافع الدارين السياق البعدي؛ حيث بين الله ــ تعالى ــ مَا أَعَدَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ مَنَازِلِ الْخَيْرَاتِ وَدَرَجَاتِ السَّعَادَاتِ لِيَكُونَ وَعْدُ هَؤُلاءِ مَذْكُورًا مَعَ وَعِيدِ أُولَئِكَ، قال تعالى في خير الدنيا: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ففي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْحَسَنَةِ الْحَاصِلَةِ فِي الدُّنْيَا وُجُوه- الأَوَّلُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ جَزَاءٌ عَلَى مَا عَمِلُوهُ. وَالثَّانِي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ النصر، والعز، وحسن السيرة والتمكين في البلاد من الظَّفَر عَلَى أَعْدَاءِ الدِّيْنِ بِالْحُجَّةِ وَبِالْغَلَبَةِ لَهُمْ، وَبِاسْتِغْنَامِ أَمْوَالِهِمْ وَفَتْحِ بِلادِهِمْ، وغير ذلك، وقال في خير الآخرة: ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ وَمَعْنَى وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ أَنَّهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ فَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ أَحْسَن، فَكَمَا كَانَ لِلَّذِينَ

(١) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٣٦٥.

(٢) ينظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة ٨/ ٤١٦٦، والتفسير المظهري ٥/ ٣٣٧.

كَفَرُوا عَذَاب الدُّنْيَا وَعَذَاب جَهَنَّمَ كَانَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا خَيْر الدُّنْيَا وَخَيْر الآخِرَة [1]، فَهَذَا مُقَابِلُ قَوْلِهِ تَعَالَى في حَقِّ الْمُشْرِكِينَ: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ (النَّحْل: ٢٥) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النَّحْل: ٢٦) كما أن قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها﴾ مُقَابِل قَوْله تَعَالَى في ضِدِّهِمْ ﴿فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النَّحْل: ٢٩).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

١٧- قوله تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج: ٣٦).

بعد أن حث المولى ــ سبحانه وتعالى ــ على التقرب بالأنعام كلها، وبين أن ذلك من تقوى القلوب ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٣٣)، وبعد أن بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣٥)﴾ خص من النفقة الإبل؛ لأنها أعظمها خلقًا، وأكثرها نفعًا، وأنفسها قيمة ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي لكم فيها نفع في الدنيا كالركوب واللبن، وأجر في الآخرة بنحرها والتصدق منها.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٠٢/٢٠، والتحرير والتنوير للطاهر لابن عاشور ١٤٢/١٤.

وقد اختلف العلماء في معنى (الخير) في الآية على أقوال –

القول الأول: أن الخير: منافع الدنيا، فعن إبراهيم النخعي قال: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منفعة فإن احْتَاجَ إلى ظهرها ركب، وَإِنِ احْتَاجَ إِلَى اللَّبَنِ شَرِبَ [١]. يقول الماتريدي:" ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: المنافع الحاضرة من الركوب، والحلب، والحمل عليها بعد ما قلدت وأوجبت هديًا. وقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ إلى أن تقلد، فإذا قلدت فلهم الأجر في الآخرة، وكأن هذا أشبه، أي: يكون قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: الأجر في الآخرة "[٢].

القول الثاني: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: أجر، وهو قول السدي[٣]، يقول ابن كثير:" ﴿ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ﴾ أَيْ ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَة "[٤]. وقد استخدم الشافعي سياق الحال لبيان معني لفظ الخير في الآية فقال:" الخير كلمة يُعرف ما أريد منها بالمخاطبة بها، وقال اللَّه- عز وجل- ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآية، فعقلنا أن الخير: المنفعة بالأجر، لا أن لهم في البُدن مالاً "[٥].

القول الثالث: ذهب جمهور المفسرين إلى أن ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يعني: النفع في الدنيا والأجر في الآخرة، فالصواب عمومه في خيرى الدنيا والآخرة [٦]، يقول

---

(١) ينظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٧٥، والنكت والعيون للماوردي ٤/ ٢٦.

(٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٧/ ٤١٩.

(٣) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٤/ ٢٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ٣٧٤.

(٥) تفسير الإمام الشافعي لمحمد بن إدريس الشافعي(ت:٢٠٤هـ) ٣/ ١٠٨٩- حققه: د. أحمد مصطفى الفرَّان- دار التدمرية – السعودية- ط١- ١٤٢٧ه- ٢٠٠٦م.

(٦) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١٢٧/٣،وبحر العلوم للسمرقندي ٤٦٠/٢، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٢٢/٤ ومعالم التنزيل للبغوي٣/ ٣٤١، وزاد المسير لابن الجوزي ٢٣٧/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٧٢/٤.

الطبري:" ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يَقُولُ: لَكُمْ فِي الْبُدْنِ خَيْرٌ، وَذَلِكَ الْخَيْرُ هُوَ الأَجْرُ فِي الآخِرَةِ بِنَحْرِهَا وَالصَّدَقَةِ بها، وفي الدُّنْيَا: الرُّكُوبُ إِذَا احْتَاجَ إِلَى رُكُوبِهَا، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ...عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قَالَ: أَجْرٌ وَمَنَافِعُ فِي الْبُدْنِ"(١). كما قال ابن عباس: نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة (٢). ويؤكد الطاهر بن عاشور على عموم الخير في الآية، فيقول:" وَالْخَيْرُ: النَّفْعُ، وَهُوَ مَا يَحْصُلُ لِلنَّاسِ مِنَ النَّفْعِ فِي الدُّنْيَا مِن انْتِفَاعِ الْفُقَرَاءِ بِلُحُومِهَا وَجُلُودِهَا وَجِلالِهَا وَنِعَالِهَا وَقَلائِدِهَا، وَمَا يَحْصُلُ لِلْمُهْدِينَ وَأَهْلِهِمْ مِنَ الشِّبَعِ مِنْ لَحْمِهَا يَوْمَ النَّحْرِ، وَخَيْرُ الآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِ الْمُهْدِينَ، وَثَوَابِ الشُّكْرِ مِنَ الْمُعْطِينَ لُحُومَهَا لِرَبِّهِمُ الَّذِي أَغْنَاهُمْ بِهَا "(٣).

يتضح مما سبق أن(الخير) في الآية يشمل خيرى الدنيا والآخرة، أما ما يدل على خير الدنيا فالسياق القبلي والبعدي، فالسياق القبلي هو قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ(٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال ابن عباس: شعائر الله: البدن والهدي، وأصلها من الإشعار، وهو العلامة التي يعرف بها أنها هدى، وتعظيمها استسمانها واستحسانها ﴿ لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في البدن مَنافِع، قيل: هي درها، ونسلها، وصوفها ووبرها، وركوب ظهرها ﴿ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى أن يسميها ويوجبها هديًا، وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك، وقيل: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديًا بأن تركبوها وتشربوا من ألبانها عند الحاجة، إلى أجل مسمى، يعني إلى أن تنحروها،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٦/ ٥٥٣.

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣/ ١٥٨، وروح المعاني للألوسي ١٤٩/٩.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٧/ ٢٦٣.

وهو قول عطاء[1]. أما السياق البعدي فهو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ أي: كلوا من هذه الهدايا، وأطعموا القانع: أي المتعفف، والمعتر: أي السائل.

أما ما يدل على خير الآخرة فالسياق البعدي، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ(٣٧)﴾ . وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ(ﷺ) قَالَ:[مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلاً أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ من إهراق دم، وإنها لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلاِفِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا][2] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله(ﷺ) [مَا أَنْفَقْتَ الْوَرِقَ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ نَحِيرَةٍ فِي يَوْمِ عِيدٍ][3].

١٨- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج:٧٧).

خُتمت سورة الحج بالإقبالِ على مخاطبة المؤمنين بندائهم بما امتازوا به من تكريم، وتنبيههم إلى أن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان ونتيجته، وفي مقدمة الأَعمال الصالحة الصلاة؛ لأَنها علامة الإيمان وعماد الدين، وقد عبر عنها

(١) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣/ ٢٥٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة(محمد بن يزيد القزويني، ت: ٢٧٣هـ) في سننه ٤/ ٣٠٥-ح/٣١٢٦ (أَبْوَابُ الْأَضَاحِيِّ ،بَابُ ثَوَابِ الْأُضْحِيَّةِ) حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون- دار الرسالة العالمية- ط١- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

(٣) أخرجه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي(ت: ٤٥٨هـ) في السنن الكبرى ٩/ ٤٣٨- ح/١٩٠١٤ (كتاب الضحايا) حققه: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- ط٣- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .

بالركوع والسجود؛ لأنهما سمة الخشوع والخضوع اللذين هما قِوام الصلاة، ثم أمرهم باستكمال موجبات الإيمان فقال: ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي: اعبدوا خالقكم ومالككم باتباع أوامره واجتناب نواهيه والاتجاه إليه وحده بالعبادة والتقديس، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات أمرًا مطلقًا غير مقيد ولا محدود فقال: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الخير كل عمل يكون فيه نفع للناس ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وقد اختلف العلماء في تفسير(الخير) في الآية على أقوال-

القول الأول: عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ صِلَةُ الرَّحِمِ وَمَكَارِمُ الأَخْلَاق [1].

القول الثاني: وقيل المراد بالخير هنا: الطَّاعَة الْمَنْدُوبَة، فقوله: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ "تدب فيما عَدَا الْوَاجِبَاتِ الَّتِي صح وجوبها من غير هذا الموضع"[2]. فمعنى: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ تحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ في كلِّ ما تأتون وما تذرون من نوافلِ الطَّاعاتِ.

القول الثالث: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الخير: كل مَا أمرَ اللَّه بِهِ من الطاعات وَسَائِر وُجُوه الْبر [3].

فالآية تشتمل على عدة أوامر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧)﴾ وَيَظْهَر فِي هَذَا التَّرْتِيبِ أَنَّهُمْ

(١) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٣/ ٢٨١، ومعالم التنزيل للبغوي ٣٥٢/٣، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣/ ١٧٢.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١٣٤/٤، وينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٩٨، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٨٠/٤.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٤٣٩، وتفسير القرآن للسمعاني ٣/ ٤٥٧.

أُمِرُوا أَوَّلاً" بِالصَّلاةِ وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَثَانِيًا بِالْعِبَادَةِ وَهِيَ نَوْعٌ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَثَالِثًا بِفِعْلِ الْخَيْرِ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَبَدَأَ بِخَاصٍّ ثُمَّ بِعَامّ ثُمَّ بِأَعَمّ "[1]. فالخير هنا للتعدية إلى الغير، وما قبله يختص بالقاصرة، فالصلاة والعبادة إصلاح ما بينك وبين الله، وفعل الخيرات للتعدية، فهو دعوة عامة لتعدي الخير إلي الغير كتعليم العلم، والصدقة، ونحو ذلك.

وظاهر السياق العام للآية أن قوله: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أَيْ: مَا هُوَ خَيْر، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الطَّاعَةِ الْوَاجِبَةِ وَالْمَنْدُوبَةِ، فهو يعم الأفعال كلها، أما ما قيل: المراد صلة الرحم، وقال ابن عطية: هي في الندب فيما عدا الواجبات، فاللفظ أعم من ذلك كله [2]. فالخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف من قول وعمل يرضى الله- تعالى- لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

١٩- قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (المؤمنون:٦١)

بعد أن خاطب الله- تعالى- رسوله بقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤)﴾ مهددًا قريشًا، والمعنى: فذر هؤلاء الكفار من قريش في كفرهم وغيهم، فهم يشبهون من سبقهم في الكفر والعناد، ولا تحزن لتأخير العذاب عنهم فلكل شيء وقت معلوم وأجل محدود، أيحسب هؤلاء المغرورون ﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ(٥٥)﴾ لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، ﴿ إنما نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ من المال والبنين لهدف، وهو استدراجهم وإملاء لهم، ولهذا قال الله:

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٧/ ٥٣٩.

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي(ت:٧٤١هـ) ٢/٤٧- حققه: د/ عبد الله الخالدي- دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت- ط١- ١٤١٦هـ.

{ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} وقال في آية أخرى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [التوبة ٥٥]، ثم بعد ذلك خاطب ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٦١)﴾ .

وقد اختلف المفسرون في معنى لفظ(الْخَيْرَات) في الآية على أقوال-

القول الأول: قَالَ الْحَسَنُ: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أَيْ فِيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِم [١].

القول الثاني: قال ابن زيد: الخيرات: المخافة، والوجل، والإيمان، والكفّ عن الشرك بالله، فذلك المسابقة إلى هذه الخيرات [٢].

القول الثالث: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي نيل خيرات الدارين بمزاولة الأعمال الصالحة فيعطيهم خيرى الدنيا والآخرة[٣].

القول الرابع: قوله: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعني يسارعون في الطاعات والأعمال الصالحة التي ذكرها لهم؛ كيلا يفوت منهم إتيانها، وكَيْ يَنَالُوا بِذَلِكَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ والغرفات [٤].

القول الخامس: ﴿ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ أَنَّهُمْ يَتَعَجَّلُونَ فِي الدُّنْيَا أَنْوَاعَ النَّفْعِ وَوُجُوهَ الإِكْرَامِ؛ لأَنَّهُمْ إِذَا سُورِعَ لَهُمْ بِهَا فَقَدْ سَارَعُوا فِي نَيْلِهَا وَتَعَجَّلُوهَا،

(١) ينظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤٠٦، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٣/ ٢٠٤.

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧/ ٤٩٧٩.

(٣) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي ٣/٩٠.

(٤) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٢٨٨، وتفسير مقاتل ٣/١٦٠، وبحر العلوم السمرقندي ٢/٤٨٤.

فقد أثبت لهم ما نُفي عن أضدادِهم خلا أنَّه غيَّر الأسلوب؛ حيثُ لم يقُلْ: أولئكَ نُسارع لهم في الخيراتِ، بل أسند المسارعة إليهم إيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: إيَّاها سابقون، واللاَّمُ لتقوية عمل اسم الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (المؤمنون:٦٣) أي: ينالونَها قبل الآخرةِ حيثُ عُجِّلتْ لهم في الدُّنيا، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منّا لهم، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات، وإنما الذي يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراك به وعدم الرياء في العمل والتصديق مع الخوف منه [١].

وقد رجح كثير من العلماء هذا القول بناء على السياق القبلي(التقابلي) للآية؛ حيث إن هَذَا الوجه أَحْسَنُ طِبَاقًا لِلآيَةِ الْمُتَقَدِّمَة؛ لأَنَّ فيه إِثْبَات مَا نُفي عن الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِين [٢]. وقد رجح الألوسي- أيضًا- هذا التفسير فقال:" وأنت تعلم أن أكثر هذه الأوجه خلاف الظاهر، وأن التفسير الأول للخيرات أحسن طباقًا للآية المتقدمة "[٣].

٢٠- قوله تعالى: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور:١٢)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ (النور: ١١) أجمع المفسرون أن هذه الآية وما يتعلق بها بعدها (عشر آيات) نزلت في شأن السيدة

(١) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ٩٠، والبحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٥٦٩، وإرشاد العقل السليم ٦/ ١٤٠.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٣/ ١٩٢، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٣/ ٢٨٤، وغرائب القرآن للنيسابوري ٥/ ١٢٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للألوسي ٩/ ٢٤٦.

عائشة-رضى الله عنها- حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب، والفرية التي غار الله- تعالى- لها ولنبيه(ﷺ) فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول(ﷺ)، والمعنى: هلا بمجرد سماعكم- أيها المؤمنون والمؤمنات- حديث الإفك هذا ظننتم(بأنفسكم) أي: بإخوانكم وبأخواتكم ظنًا حسنًا جميلاً، وقلتم: هذا الحديث الذي أذاعه المنافقون كذب شنيع وبهتان واضح لا يصدقه عقل أو نقل(١).

وقد فسر بعض العلماء لفظ(الخير) في الآية بالعفة والصلاح (٢)، فقوله: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: هلا إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظننتم بمن اتهم بذلك خيرًا وعفافًا؛ لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن، ويكفكم عن إساءتكم الظن بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم، وهلا قلتم حينئذٍ هذا إفك ظاهر.

ومن العلماء من فسر لفظ(الخير) في الآية بعدم الفاحشة، يقول الطبري: " يَقُولُ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَلّا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْ سَمِعْتُمْ مَا قَالَ أَهْلُ الإِفْكِ فِي عَائِشَةَ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ مِنْكُمْ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، يَقُولُ: ظَنَنْتُمْ بِمَنْ قُرِفَ بِذَلِكَ مِنْكُمْ خَيْرًا، وَلَمْ تَظُنُّوا بِهِ أَنَّهُ أَتَى الْفَاحِشَةَ... عَنْ بَعْضِ رِجَالِ بَنِي النَّجَّارِ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ خَالِدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ أَيُّوبَ: أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ الْكَذِبُ، أَكُنْتِ فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوبَ؟ قَالَتْ: لا وَاللَّهِ، مَا كُنْتُ لأَفْعَلَهُ. قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْكِ. قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ، ذَكَرَ اللَّهُ مَنْ قَالَ فِي الْفَاحِشَةِ

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٣٢٩ وما بعدها، وزاد المسير لابن الجوزي ٢٨٢/٣.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٤/ ٨٠، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٤٩٢/٢.

مَا قَالَ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾"(١). وبنحو ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فعبد الرَّحْمَنِ بنَ زَيْدٍ قَالَ: هَذَا الْخَيْرُ ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَكُنْ لِيَفْجُرَ بِأُمِّهِ، وَأَنَّ الأُمَّ لَمْ تَكُنْ لِتَفْجُرَ بِابْنِهَا، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَفْجُرَ فَجَرَ بِغَيْرِ أُمِّهِ، يَقُولُ: إِنَّمَا كَانَتْ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بَنُوهَا مُحَرَّمٌ عَلَيْهَا، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ: بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا يَقُولُ: أَلا ظَنَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ خَيْرًا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَزْنُوا. وعَنِ السُّدِّيِّ يَقُولُ: بِأَهْلِ مِلَّتِهِمْ أَنَّهُمْ لا يَزْنُونَ. وقال مقاتل: ألا ظن بعضهم ببعض خيرًا بأنهم لا يزنون؟ (٢).

ومما يدل على هذا التفسير السياق البعدي، وهو قَوْله تعالى: ﴿ وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي قَالَ الْمُؤْمِنُون وَالْمُؤْمِنَات: هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِي رُمِيت بِهِ عَائِشَةَ مِنَ الْفَاحِشَةِ: كَذِبٌ وَإِثْمٌ، يَبِينُ لِمَنْ عَقَلَ وَفَكَّرَ فِيهِ أَنَّهُ كَذِبٌ وَإِثْمٌ وَبُهْتَانٌ، فعَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ يَقُولُ: هَذَا الْقَذْفُ كَذِبٌ (٣).

ومما يدل- أيضًا- على هذا التفسير السياق البعدي في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هَذَا توبيخٌ لأهل الإفكِ، أي هَلّا جَاءُوا بأربعة شُهداء على ما زعموا من الافتراء، وهذا رَدٌّ عَلَى الْحُكْمِ الأول، وإحالةٌ عَلَى الآيَةِ السَّابقة فِي آية الْقَذْفِ، فقوله:{لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} يعنى على القذف.

ويدل- كذلك- على هذا التفسير قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يرويه ويأخذه بَعْضكُم من بعض بالسؤال عنه ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وتقولون كلامًا مختصًا بالأفواه بلا مساعدة من القلوب ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً

(١) جامع البيان للطبري ١٧/ ٢١١، وينظر: أسباب نزول القرآن صـ٣٣٣.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤٦.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢١٣، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤٧.

لا تبعة له ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستجرار العذاب، فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم (تلقي الإفك بألسنتهم، والتحدث به من غير تحقق، واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم) ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧)﴾ يَعْنِي الْقَذْف [١].

يتضح مما سبق أن هناك تفسيرين للفظ(الخير) في الآية، فهناك من فسره بعدم الزنا، وهناك من فسره بالعفاف والصلاح، ولا تعارض بين التفسيرين، والأمر قريب، والغرض الأساس هو براءة السيدة عائشة(رضى الله عنها) من الفاحشة؛ لأن العفة أهلها.

٢١- قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور:٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ﴾، أَيْ: يطلبون المكاتبة، ومَعْنَى المكاتبة: هُوَ أَنْ يكاتب الرجلُ عَبْدَهُ على مالٍ يُؤدّيه مُنجَّمًا عليه، فإذا أَدَّاهُ فهو حُرٌّ.

سَبَب نُزُول الآيَة: مَا رُوِيَ أَنَّ غُلامًا لِحُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى سَأَلَ مَوْلاهُ أَنْ يُكَاتِبَهُ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الآيَةَ، فَكَاتَبَهُ حُوَيْطِبٌ عَلَى مِائَةِ دِينَارٍ، وَوَهَبَ لَهُ مِنْهَا عِشْرِينَ دِينَارًا فَأَدَّاهَا، وَقُتِلَ يَوْمَ حُنَيْنٍ فِي الْحَرْبِ [٢].

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي معنى (الخير) الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِكِتَابَةِ عَبِيدِهِمْ إِذَا عَلِمُوهُ فِيهِمْ على أقوال-

القول الأول: قوله تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني مَالاً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٠] أَيْ: مَالاً، وقَوْله: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤/ ١٠١.

(٢) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ ٣٣٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ٤١١.

الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات:٨) أَي: لحب المال. رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والسُّدِّيّ، والْحَسَن، وَالضَّحَّاك، وطاووس، وعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قَالَ: إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ مَالاً، كَائِنَةً أَخْلاقُهُمْ وَأَدْيَانُهُمْ مَا كَانَتْ [١].

وتفسير(الخير) في الآية بالمال- وإن كان داخلاً فيه- ضعفه العلماء من وجهين- :

الأول: أنه لا يقال في فلان مال وإنما يقال له أو عنده مال، فالْمَالُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَيْرِ، فَإِنَّهُ لا يَكُونُ فِي الْعَبْدِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَهُ أَوْ لَهُ، لا فِيهِ، وَاللَّهُ إِنَّمَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا مُكَاتَبَةَ الْعَبْدِ إِذَا عَلِمْنَا فِيهِ خَيْرًا، لا إِذَا عَلِمْنَا عِنْدَهُ أَوْ لَهُ.

الثاني: أن العبد لا مال له بل المال لسيده [٢].

القول الثاني: قَوْلُهُ: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ عن ابن مسعود: الخير: إقامة الصلاة [٣]. "عَنْ مُحَمَّدِ بن سِيرِين قَالَ: إِذَا صَلَّوْا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ"[٤]. وقال الماتريدي:" أي: كاتبوهم إن علمتم أنهم يرغبون في أنواع الخير، وإقامة الصلاة، وأنواع الصلاح، وفرّغوا أنفسهم لذلك "[٥].

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٩٧، وجامع البيان للطبري ١٧/ ٢٨١، وتفسير يحيى ابن سلام ١/ ٤٤٦.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٨٢/١٧، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ١٨٨/٥.

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/ ٥٠٨٤.

(٤) تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤٤٦.

(٥) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٧/ ٥٥٩.

القول الثالث: قيل: الخير: الإسلام والقرآن [١]. يقول الألوسي:" الذي يظهر من الاستعمال أنه الدين، تقول: فلان فيه خير فلا يتبادر إلى الذهن إلا الصلاح. وتعقب بأنه لا يناسب المقام ويقتضي ألا يكاتب غير المسلم"[٢].

القول الرابع: عن اللَّيْث فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: حزمًا. وقيل: ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ عَقْلاً [٣].

القول الخامس: قَالَ قَتَادَةُ: إِنْ عَلِمْتُمْ عِنْدَهُمْ صِدْقًا وَوَفَاءً وَأَمَانَةً [٤]. وفي تنوير المقباس:" ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ صلاحًا ووفاء"[٥]. وتأويل هذا: أي كاتبوهم إن علمتم أنهم يقدرون على وفاء ما كوتبوا.

القول السادس: عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُه: فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا يَقُولُ: إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ حِيلَةً، وَلا تُلْقُوا مَؤُنَتَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ [٦]. وكره ابن عمر أن يُكَاتَب العبد إذا لم تكن له حرفة وقال: تطعمني أوساخ أيدي الناس. وكَانَ قَتَادَة يَكْرَهُ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَيْسَتْ لَهُ حِرْفَةٌ أَنْ يُكَاتِبَهُ الرَّجُلُ لا يُكَاتِبُهُ إلا لِيَسْأَلَ النَّاس [٧].

ومعنى هذا القول أن(الخير) في الآية الحِرفة، ورووا في ذلك خبرًا عن رسول اللَّه(ﷺ) مفسرًا عن يحيى ابن كثير قال: قال رسول اللَّه(ﷺ):[إِنْ عَلِمْتُمْ

(١) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٦/ ٢٣٩.
(٢) روح المعاني للألوسي ٩/ ٣٤٨.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٥.
(٤) ينظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤٤٦، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٣/ ٢٣٤.
(٥) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٢٩٥.
(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٣، وجامع البيان للطبري ١٧/ ٢٧٨.
(٧) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨/ ٥٠٨٣.

فِيهِمْ خَيْرًا- أي حِرْفَةً- وَلا تُرْسِلُوهُمْ كِلابًا عَلَى النَّاسِ][1] " إن ثبت هذا لا نحتاج إلى غيره من التفسير "[2].

وتفسير(الخير) بالحِرفة فيه خلاف، فإذا كان ابن عُمَر يَكْرَهُ أَنْ يُكَاتِبَ عَبْدَهُ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حِرْفَةٌ، ويَقُول: أَتَأْمُرُنِي أَنْ آكُلَ أَوْسَاخَ النَّاسِ؟ وكَرِهَهُ- أيضًا- الأَوْزَاعِيّ وَأَحْمَد وَإِسْحَاق، فَقد رَخَّصَ فِي ذَلِكَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَة وَالشَّافِعِيّ، ورُوِي عَنْ عَلِيٍّ(ﷺ) أَنَّ ابْنَ التَّيَّاحِ مُؤَذِّنَهُ قَالَ لَهُ: أُكَاتِبُ وَلَيْسَ لِي مَالٌ؟ قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ حَضَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ عَلَيَّ، فَأَعْطَوْنِي مَا فَضَلَ عَنْ مُكَاتَبَتِي، فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَقَالَ: اجْعَلْهَا فِي الرِّقَاب. ورَوَى عَنْ عَائِشَةُ(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ:[دَخَلَتْ عَلَيَّ بَرِيرَةُ فَقَالَتْ: إِنَّ أَهْلِي كَاتَبُونِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي تِسْعِ سِنِينَ، كُلّ سَنَةٍ أُوقِيَّة، فَأَعِينِينِي...][3] الْحَدِيث. فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ للسَّيِّدِ أَنْ يكاتب عبده وهو لا شيء مَعَهُ، أَلا تَرَى أَنَّ بَرِيرَة جَاءَتْ عَائِشَةَ تُخْبِرُهَا بِأَنَّهَا كَاتَبَتْ أَهْلَهَا وَسَأَلَتْهَا أَنْ تُعِينَهَا، وَذَلِكَ كَانَ فِي أَوَّلِ كِتَابَتِهَا قَبْلَ أَنْ تُؤَدِّيَ مِنْهَا شَيْئًا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ كِتَابَةِ الأَمَةِ وَهِيَ غَيْرُ ذَاتِ صَنْعَةٍ وَلا حِرْفَةٍ وَلا مَالٍ، وَلَمْ يَسْأَل النَّبِيُّ(ﷺ) هَلْ لَهَا كَسْب أَوْ عَمَل وَاصِبٌ أَوْ مَال، وَلَوْ كَانَ هَذَا وَاجِبًا لَسَأَلَ عَنْهُ لِيَقَعَ حُكْمُهُ عَلَيْهِ؛ لأَنَّهُ بُعِثَ مُبَيِّنًا مُعَلِّمًا [4].

القول السابع: قال ابن عباس في رواية عطاء في قوله: ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قوة على الكسب، وأداء المال، وهو اختيار جمهور العلماء، وَقَالَ مَالِكٌ:

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٥٣٥- ح/٢١٦٠١ (بَابُ:مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِه : {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}.

(٢) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٧/ ٥٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/١١٤٢-ح/٨ (كِتَابُ الْعِتْق، بَابُ : إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ٢٤٦.

سَمِعْتُ بَعْض أَهْل الْعِلْمِ يَقُولُونَ: هُوَ الْقُوَّة عَلَى الاكْتِسَاب وَالأَدَاء. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: وَأَظْهَرُ مَعَانِي الْخَيْرِ فِي الْعَبْدِ: الأَمَانَة وَالْقُوَّة عَلَى الْكَسْب؛ فَأُحِبُّ أَنْ لا يُمْنَعَ مِنْ كِتَابَتِهِ إِذَا كَانَ هَكَذَا. فمَقْصُود الْكِتَابَةِ قَلَّمَا يَحْصُلُ إلا بِهِمَا، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُون كَسُوبًا يُحَصِّل الْمَال، وَيَكُون أَمِينًا يَصْرِفهُ فِي نُجُومِهِ وَلا يُضَيِّعهُ؛ لأنه قد يكون قويًا فيكسب، فلا يؤدي إذا لم يكن ذا أمانة، وأمينًا فلا يكون قويًا على الكسب فلا يؤدي، فَإِذَا فُقِدَ الشَّرْطَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا لا يستحب أَنْ يُكَاتِبَهُ؛ لأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا يَعُودُ عَلَى كِتَابَتِهِ بِالتَّمَامِ، وَدَخَلَ فِيهِ تَفْسِيرُ النَّبِيِّ(ﷺ) الْخَيْرَ؛ لأَنَّهُ(ﷺ) فَسَّرَهُ بِالْكَسْبِ وَهُوَ دَاخِلٌ فِي تَفْسِيرِ الشَّافِعِيِّ [1].

يتضح مما سبق أن آراء الفقهاء مختلفة في معني(الخير) والرَّاجح والأولى القدرة على الكسب مع الأمانة؛ فهو يتوافق مع خط الإسلام الرئيس في الحرية وفي كرامة الإنسانية، فالإسلام لا يترك الرقيق كَلاً وكلابًا على الناس- كما جاء في الحديث- بعد تحرره، وقد يلجأ إلى أحط الوسائل للعيش والكسب، فالإسلام نظام تكافل، فليس المهم أن يقال: إن الرقيق قد تحرر؛ لأن الرقيق لن يتحرر حقًا إذا كان كَلاً على الناس، بل إذا قدر على الكسب بعد عتقه مع أمانته.

فالشرطان السابقان يَجْمَعان بين مقصد الشَّريعة وبين حفظ حقِّ السَّادة في أموالهم، والأقرب أن (الخير) في هذه الآية شيء يتعلق بالكتابة، ومقصود الكتابة لا يحصل إلا بالكسب ثم بالأمانة كيلا يضيع ما يكسبه فيكون في مكاتبته ضرر على السيد، فهذه هي الأسباب الَّتِي مولى الْعَبْد في حاجة إِلَيْهَا عند مكاتبته لعبده.

(١) ينظر: تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١١٣٩، والوسيط في تفسير القرآن للواحدي ٣/ ٣١٩، ومعالم التنزيل للبغوي ٤١٢/٣، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ٣٧٤/٢٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي٢٤٦/١٢.

٢٢- قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (الرحمن: ٧٠).

ما زال السياق الكريم لسورة الرحمن في ذكر إنعام الله ــ تعالى ــ وإفضاله على عباده فقال: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وقبل هذه الآية وعد الله عباده بأربع من الجنان فقال: ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ (الرحمن: ٤٦) ثم قال: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٢) أي ومن دون تلك الجنتين جنتان أخريان لمن خاف مقام ربه من السابقين وهاتان لمن خاف مقام ربه من أصحاب اليمين، وقوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ والضمير في قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الجنات الأربع، أي في الجنان نساء خَيْراتٌ(حِسانٌ) أَيْ حِسَان الْخَلْق، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: ﴿ خَيْراتٌ﴾ الأَخْلَاق ﴿ حِسانٌ﴾ الْوُجُوهِ، ومعنى الآية: في هذه الجنات نساء مختارات حسان الخَلْق والخُلُق، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن [١].

وفي المراد بـ(خَيْرَاتٌ) قولان -

أحدهما: خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ، والنعم المستحسنة فِي الْجَنَّةِ، قَالَهُ قَتَادَة [٢].

الثاني: الحور العين، يقول أبو عبيد الهروي:" ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي في الجنان حور خيرات الأخلاق، وحسان الوجوه "[٣]. فالخَيْرَات جَمْعُ خَيِّرَة، ثم خفف، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلق، الحسنة الوجه، وهو قول الجمهور [٤]، بدليل أن الرَّسُولُ(ﷺ) فَسَّرَ لأُمِّ سَلَمَة ذَلكَ، حيث قالت:[قلت لرسول الله(ﷺ): يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ قال: خَيِّرَاتُ

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٨٧.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥/ ٤٤٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٦٨.

(٣) الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي ٢/٦٠٨.

(٤) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢١/ ١٩٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٦٨.

الأخلاق، حسان الوجوه][1] وفي حديث آخر أن الحور العين يغنين:[نحن الخَيِّرَات الحسان، خلقنا لأزواج كرام][2].

كما أن السياق البعدي يرجح أن(خيرات): الحور العين؛ حيث قال ــ تعالى ــ في وصفهن:{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} أي إن هؤلاء النساء الخيرات ﴿حُورٌ﴾ شديدات البياض، وفي عيونهن حور، أي واسعات الأعين، مع صفاء البياض ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ مخدرات محجبات مستورات في خيام الجنة المكونة من الدرّ المجوفة، فلسن مترددات في الشوارع والطرقات. فعَنْ مُجَاهِدٍ{مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} قَال: قَصَرْنَ أَنْفُسهنَّ وَقُلُوبهنَّ وَأَبْصَارهنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلا يُرِدْنَ غَيْرَهُمْ. وقَالَ الْحَسَنُ: لَسْنَ بِطَوَّافَاتٍ فِي الطُّرق، وَالعرب تمدَح النِّسَاء الملازمات للبيوت؛ إِذْ مُلازَمَتُهُنَّ الْبُيُوت تَدُلُّ عَلَى صِيَانَتِهِنَّ [3]. ويدل على ذلك- أيضًا- قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن:٥٦) أي لم يمسّهن ولم يجامعهن قبل ذلك أحد من الإنس والجن، توفيرًا للمتقين الخائفين ربّهم.

٢٣- قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. (التغابن: ١٦).

---

(١) أخرجه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني(ت:٣٦٠هـ) في المعجم الكبير ٣٦٧/٢٣- ح/٨٧٠ (باب: السين) حققه: حمدي عبد المجيد السلفي- مكتبة ابن تيمية- القاهرة- ط٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني(ت:٤٣٠هـ) في صفة الجنة ٢٧٠/٢-ح/٤٣٢ (ذِكْرُ حُبُورِ أَهْلِهَا وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْغِنَاءِ وَالطَّرَبِ) حققه: علي رضا عبد الله- دار المأمون للتراث – دمشق- سوريا.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٢/ ٢٦٥، والبحر المحيط لأبي حيان ٧٠/١٠ وما بعدها.

في هذه الآية أمر الله- تعالى- عباده بعدة أمور، فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّـهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: قدر جهدكم ووسعكم وطاقتكم { وَاسْمَعُوا} أي: ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: أوامره ونواهيه سبحانه ﴿ وَأَنْفِقُوا﴾ أي: مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه جل شأنه كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ وذكر ذلك تخصيص بعد تعميم، أي: إنفاقًا خيرًا لأنفسكم ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ بأن لا يبخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وحدهم، فلا فلاح إلا بالخروج من شح النفس(١).

وقد فسر العلماء ﴿ الخير﴾ في الآية بالمال، يقول ابن عباس:" ﴿ خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ﴾ يَقُول: الصَّدَقَة خير لكم من إِمْسَاكهَا ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ من دفع عَنهُ بخل نَفسه، وَيُقَال من أدّى زَكَاة مَاله "(٢). ويقول الطبري:" ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ يَقُولُ: وَأَنْفِقُوا مَالاً مِنْ أَمْوَالِكُمْ لأَنْفُسِكُمْ تَسْتَنْقِذُوهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَالْخَيْرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمَال "(٣).

ومما يدل على أن لفظ(الخير) هنا المال السياق القبلي والبعدي، فالقبلي قوله تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا﴾ فلفظ الإنفاق يدل على أن الخير المال، والبعدي وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حيث رغبهم في النفقة، أي: ومن يعطى حق الله من ماله، ويبتعد عن البخل والحرص على المال يكن من الفائزين بكل ما

(١) ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى (ت:١٤٠٩هـ) ١٠/ ٥٩٥٨- دار السلام – القاهرة – ط٦ – ١٤٢٤هـ.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٤٧٤.

(٣) جامع البيان للطبري ٢٣/ ٢٣، وينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨١، وبحر العلوم للسمرقندي ٣/ ٤٥٨، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٢١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٢٤٨.

يرجو، ثم بالغ في الحث على الإنفاق فقال: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ يعني التطوع ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني طيبة بها أنفسكم تحتسبها ﴿ يُضاعِفْهُ لَكُمْ} يعني القرض ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالصدقة ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ لصدقاتكم حين يضاعفها لكم [1].

٢٤- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠)

ختمت سورة المزمل بتذكيرات مشتملة على أنواع من الهداية والإرشاد، حيث أمر الله ــ تعالى ــ عباده أن يصلّوا ما تيسر بالليل ﴿ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، للأعذار التي تحيط بهم من مرض أو سفر للتجارة ونحوها أو جهاد للعدوّ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي وصلّوا الصلاة المفروضة وقوّموها، وآتوا الزكاة الواجبة عليكم، وأقرضوا الله قرضًا حسنًا بالإنفاق في سبل الخير، ثم حبّب في الصدقة وفعل الخيرات فقال: ﴿ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: وما تقدموا لأنفسكم في دار الدنيا من صدقة أو نفقة تنفقونها في سبيل الله، أو فعل طاعة من صلاة، أو صيام، أو حج، أو غير ذلك،

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٣٥٤.

تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة خيرًا مما أبقيتم في دار الدنيا، وأعظم منه عائدة لكم [١].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن(الخير) في قوله تعالى: ﴿ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني من صدقة فريضة كانت أو تطوع ﴿ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم [٢].

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن(الخير) في قوله تعالى: ﴿ وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ عام، فيشمل الصدقة وغيرها من أفعال الطاعة، يقول الطبري في الآية:" يَقُول: وَمَا تُقَدِّمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِأَنْفُسِكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ نَفَقَةٍ تُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَفَقَةٍ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، أَوْ عَمَلٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ صَلاةٍ أَوْ صِيَامٍ أَوْ حَجٍّ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ فِي طَلَبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ، تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَعَادِكُمْ، هُوَ خَيْرًا لَكُمْ مِمَّا قَدَّمْتُمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْظَم مِنْهُ ثَوَابًا "[٣]. ويقول ابن عباس في:{وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ}" من صَدَقَة أَو عمل صَالح "[٤].

ويبدو أن الراجح هو عموم دلالة(الخير)؛ لدلالة السياق اللغوي علي ذلك، فليس(الخير) في الآية خاصًا بالصدقة؛ فقد سبق أن أمر الله بها ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالله ــ تعالى ــ لما أمر في هذه الجمل ﴿ فَاقْرَءُوا مَا

(١) ينظر: تفسير المراغي ٢٩/ ١١٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٧٩، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٣٨٨/٢٢.

(٣) جامع البيان للطبري ٢٣/ ٣٩٨ وما بعدها، وينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣/ ٥١٢، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٨١٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ٣٤٧/٩.

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٤٩١.

تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بعمودي الإسلام البدني والمالي وهما أمهات الأعمال اهتمامًا بها، أتبعها بالأمر بفعل الخيرات كلها في جميع شرعه، فقَوْلَهُ: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ عام بعد خاص، فهو يعمّ جميع أفعال الخير، وَالْخَيْر: هو ما وصفهُ الدِّينُ بِالحُسْنِ ووعد على فعله بالثواب، كما أن (ما) شرطية و(خَيْر) نكرة، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

المبحث الرابع

أثر السياق في بيان معنى لفظ الخير الوارد في حق الكفار

لقد انطوت نفوس الكفار الضالة عن الله على الحقد والكراهية، فلا تتمنى الخير لأحد، كما أنها لا تسمع لأوامر الله ونواهيه، بل تجدها نفسًا عنيدة مستكبرة لا ترى شيئًا غيرها، ومع هذا إن أصابها شيء من الضرّ جزعت وازدادت كفرًا وضلالاً، وإن مسّها الخير نفرت نفار الحيوان الشرس، واتخذت من نعمة الله سلاحًا تحارب به الله، وتضرب في وجوه عباده، ولذا توعدهم الله بالعذاب الأليم، من هنا جاء لفظ الخير الوارد في حق الكفار في القرآن ملائمًا لما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة، متسقًا مع ما وعدهم الله به، وإليك هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

أخبر المولى- سبحانه وتعالى- في هذه الآية عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، وأنهم ما يودون ﴿ أَنْ يُنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيرًا {مِنْ رَبِّكُمْ} حسدًا منهم، وبغضًا لكم أن يختصكم بفضله فإنه ﴿ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وَهَذِهِ الآيَةُ لِبَيَانِ حَسَدِ الْيَهُود وَغَيْرِهِمْ لِلْمُسْلِمِين، أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ وَلا سِيَّمَا الْيَهُود فَحَسَدهمْ لِلْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ فِيهِم الْكِتَاب وَالنُّبُوَّة، وَهُوَ مَا كَانُوا يَحْتَكِرُونَهُ لأَنْفُسِهِمْ؛ حيث كانت الرسل تبعث من أَولاد إسرائيل وهم كانوا من نسله، فلما بعث من أولاد إسماعيل- عليه السلام- لم تطب أنفسهم بذلك، بل كرهت، وَأَمَّا الْمُشْرِكُون فلم يُحبوا ذلك؛ لما كانت تذهب منافعهم التي كانت لهم، والرياسة بخروجه (ﷺ)، ثُمَّ إِنَّ اللهَ- تَعَالَى- رَدَّ عَلَيْهِمْ بِمَا بَيَّنَ جَهْلَهُمْ وَجَهْل جَمِيع الْحَاسِدِينَ فَقَالَ: ﴿ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أَيْ: أَنَّ الْحَاسِدَ لِغَبَاوَتِهِ وَفَسَادِ طَوِيَّتِهِ يَكُونُ سَاخِطًا عَلَى اللهِ وَمُعْتَرِضًا عَلَيْهِ أَنْ أَنْعَمَ عَلَى الْمَحْسُودِ بِمَا أَنْعَمَ، واللهُ- تعالى- هو صاحب التصرف المطلق في الإعطاء والمنع [1].

وقد اختلف في معني (الخير) الذي ما يود الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى المسلمين مِنْ رَبِّهِمْ على أقوال-

القول الأول: النبوة، يقول السمعاني:" ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد، ذكر الْوَاحِد بخطاب الجمع على مَا هُوَ عَادَة الْعَرَب ﴿ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي النُّبُوَّة ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس وَأَكْثر الْمُفَسّرين: الرَّحْمَة بِمَعْنى النُّبُوَّة هَاهُنَا "[2]. وهذا القول يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

القول الثاني: الخير: الإسلام، يقول الماتريدي:" ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قيل: الخير: النبوة. وقيل: الخير: الإسلام. وقيل: الخير: الرسول هاهنا "[3]. ومما يدل على هذا القول (أن الخير: الإسلام) أن "الأنصار دعوا حلفاءهم من اليهود إلى الإسْلام، فقالوا للمسلمين: ما تدعونا إلى خير مما نَحْنُ عَلَيْه، وددنا أنكم عَلَى هدى وأنه كَمَا تقولون، فكذبهم اللَّه- سُبْحَانَهُ- فَقَالَ: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ يعني دينه الإسْلام مَنْ يَشاءُ، نظيرها في ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (الإنسان:٣١) يعني

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ١/ ٣٤٠.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني ١/١٢٠.

(٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي ١/ ٥٣٠.

فِي دينه الإِسْلام "[1]. وعن الْحَسَن في قَوْله:{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} قَالَ: رَحْمَتُهُ: الإِسْلامُ يَخْتَصُّ بها مَنْ يَشَاءُ [2].

القول الثالث: الخير:" العلم والفقه والحكمة "[3].

القول الرابع: هو القرآن، يقول الواحدي:" ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي خير(من ربكم) ومن: صلة مؤكدة، يريد: أنهم على إنزال القرآن عليكم "[4]. ومما يدل على أن الخير هنا القرآن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ " قَالَ قَوْمٌ: الرَّحْمَةُ: الْقُرْآن "[5]. فَالْقُرْآنُ "أَعْظَمُ الْخَيْرَاتِ؛ لأَنَّهُ النِّظَامُ الْكَامِلُ، وَالْفَضْلُ الشَّامِلُ، وَالْهِدَايَةُ الْعُظْمَى، وَالآيَةُ الْكُبْرَى، جَمَعَ بِهِ شَمْلَكُمْ، وَوَصَلَ حَبْلَكُمْ، وَوَحَّدَ شُعُوبَكُمْ وَقَبَائِلَكُمْ، وَطَهَّرَ عُقُولَكُمْ مِنْ نَزَغَاتِ الْوَثَنِيَّةِ، وَزَكَّى نُفُوسَكُمْ مِنْ أَدْرَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَقَامَكُمْ عَلَى سُنَنِ الْفِطْرَةِ، وَشَرَعَ لَكُمُ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ، فَكَيْفَ لا يَحْرِقُ الْحَسَدُ عَلَيْهِ أَكْبَادَهُمْ وَيُخْرِجُ أَضْغَانَهُمْ عَلَيْكُمْ وَأَحْقَادَهُمْ؟ "[6].

القول الخامس: قوله تعالى: ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ "يعني أن ينزل على رسولكم من الوحي وشرائع الإسلام؛ لأنهم كانوا كفارًا، فيحبون أن يكون الناس كلهم كفارًا مثلهم "[7]. فالمشركون وكفرة أَهْل الكتاب تَمَنَّوا أنْ لا يُنَزِّلَ اللَّهُ علي المسلمين الفُرقان وما أوحاه إلى محمَّدٍ(ﷺ) من حكمِه وآياتِهِ؛

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١٢٩/١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٩٩/١.

(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٩٨/١.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ١/ ١٨٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٦١.

(٦) تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ١/ ٣٤٠ .

(٧) بحر العلوم للسمرقندي ٨١/١، وينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦٣٦/٣، ومدارك التنزيل للنسفي١١٨/١.

حَسَدًا وَبَغْيًا منهمْ على المؤمنين. فَالْخَيْرُ هُنَا: الْوَحْي، وهو يَجْمَعُ الْقُرْآن وغيره من الوحي الإلهي المشتمل على التشريع المتضمن لكل أنواع الهداية وطرق الإسعاد والإكمال في الدارين [1].

فبعض العلماء خصوا الخير هنا بالوحي؛ مراعاة للمقام، فهو الذي من أَجله كره أَهل الكتاب والمشركون النبي(ﷺ) والمؤمنين.

القول السادس: أن الخير هنا عام، يقول ابن عطية:" مِنْ للتبعيض؛ لأنهم يريدون أن لا ينزل على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقائل أن يقول: نريد أن لا ينزل خير كامل ولا نكره أن ينزل بعض، فإذا نفى ود نزول البعض فذلك أحرى في نزول خير كامل، والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديمًا وحديثًا، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نبوة محمد(ﷺ)، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية"[2].

وقد رجح كثير من العلماء عموم الخير في الآية، يقول أبو حيان:" الْخَيْرُ هُنَا: الْقُرْآنُ، أَوِ الْوَحْيُ، إِذْ يَجْمَعُ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ، أَوْ مَا خُصَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) مِنَ التَّعْظِيمِ، أَوِ الْحِكْمَةَ وَالظَّفَر، أَوِ النُّبُوَّة وَالإِسْلَام، أَوِ الْعِلْم وَالْفِقْه والحكمة، أو هنا عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ، فَهُمْ يَوَدُّونَ انْتِفَاءَ ذَلِكَ عَنِ الْمُؤْمِنِين، سَبْعَةُ أَقْوَال أَظْهَرُهَا الآخِرُ... وَالرَّحْمَةُ هُنَا عَامَّةٌ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، أَوِ النُّبُوَّةُ وَالْحِكْمَةُ وَالنُّصْرَةُ، اخْتُصَّ بِهَا مُحَمَّدٌ (ﷺ)، قَالَهُ عَلِيٌّ وَالْبَاقِرُ وَمُجَاهِدٌ وَالزَّجَّاجُ، أَوِ الإِسْلامُ، قَالَهُ ابْنُ عباس، أو الْقُرْآنُ، أَوِ النَّبِيُّ(ﷺ)﴿ وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ وهو

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ١/ ٥٤٥.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ١/ ١٩٠.

نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، أَقْوَالٌ خَمْسَةٌ، أَظْهَرُهَا الأَوَّلُ "[1]. ثم يستتبع الأمر فيبين أثر السياق البعدي في ترجيح عموم الخير، فيقول:" وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ هُنَا: جَمِيعُ أَنْوَاعِ التَّفَضُّلاتِ، فَتَكُونَ (اَل) لِلاسْتِغْرَاقِ، وَعِظَمِهِ مِنْ جِهَةِ سِعَتِهِ وَكَثْرَتِهِ، أَوْ فَضْلِ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ وَصَفَ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْعِظَمِ فِي قَوْلِهِ: وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا، أَوِ الشَّرِيعَةُ... وَعَلَى هَذِهِ التَّأْوِيلاتِ تَكُونُ أَلْ لِلْعَهْدِ، وَالأَظْهَرُ الْقَوْلُ الأَوَّلُ"[2].

يتضح أن الراجح عموم(الخير) في الآية؛ حيث إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لا يودون إنزال الخير ــ أي خير كان ــ على المسلمين من الله ــ سبحانه ــ فهو لا يختص بنوع معين كما يفيده وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأكيد العموم بدخول(من) المزيدة عليها وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص. والرحمة قيل: الإسلام، وقيل: النبوة، وقيل: القرآن، وقيل: جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى.

٢- قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٨).

يعني: هل ينتظر هؤلاء الكفار بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله، وهو استفهام معناه النفي، وتقديره: أنهم لا يؤمنون بك إلا إذا جاءتهم إحدى هذه الأمور الثلاث ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يعني: لقبض

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ١/ ٥٤٥، وينظر: روح المعاني للألوسي ٣٤٩/١.
(٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ١/ ٥٤٦.

أرواحهم، وقيل: أن تأتيهم بالعذاب ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يعني: للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيمة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ قال جمهور المفسرين: هو طلوع الشمس من مغربها، ويدل على ذلك ما روي عن أبي سعيد عن النبي(ﷺ) في قوله:{أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ} قال:[طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا][1] فإذا جاءتهم إحداها آمنوا، وذلك حين لا ينفعهم إيمانهم ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيمَانًا يَوْمَئِذٍ لا يُقْبَل مِنْهُ، وَعَلَيْهِ يُحْمَل قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ: وَلا يُقْبَل مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلاً بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ [2].

وقد ذهب العلماء إلى أن الخير في قوله تعالى: ﴿لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ الطاعة والعمل الصالح، يقول الطبري:" ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَوْ عَمِلَتْ فِي تَصْدِيقِهَا بِاللَّهِ خَيْرًا مِنْ عَمَلِ صَالِحٍ تُصْدَقُ قِيلَهُ، وَتُحَقِّقُهُ مِنْ قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لا يَنْفَعُ كَافِرًا لَمْ يَكُنْ آمَنَ بِاللَّهِ قَبْلَ طُلُوعِهَا، كَذَلِكَ إِيمَانُهُ بِاللَّهِ إِنْ آمَنَ وَصَدَّقَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ؛ لأَنَّهَا حَالَةٌ لا تَمْتَنِعُ نَفْسٌ مِنَ الإِقْرَارِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ لِهَوْلِ الْوَارِدِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ"[3]. وعَنِ السُّدِّيِّ ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ يَقُولُ:" كَسَبَتْ فِي

(١) أخرجه محمد بن عيسى الترمذي(ت:٢٧٩هـ) في الجامع الكبير ١١٤/٥-ح/٣٠٧١ (أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ الأَنْعَامِ) حققه: بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٧٤/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير٣٣٨/٣.

(٣) جامع البيان للطبري ٢٨/١٠، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٢٢٥٣/٣، والتحرير والتنوير ١٨٩/٨.

تَصْدِيقِهَا خَيْرًا: عَمَلاً صَالِحًا"[1].

وسياق الحال يدل على أن المراد بالخير في الآية: الأعمال الصالحة؛ حيث إن أبا هريرة قرأ الآية: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا صَالِحًا﴾[2]. وعَن أبي هُرَيْرَةَ أَن رسول الله(ﷺ) قَالَ:[بَادرُوا بِالأَعْمَالِ قبل ست: طُلُوع الشَّمْس من مغْربهَا، والدّجّال، وَالدُّخَان، ودابة الأَرْض، وَخُوَيصة أحدكُم، وَأمر الْعَامَّة][3] خويصة أحدكُم: الْمَوْت، وَأمر الْعَامَّة: أَمر السَّاعَة [4].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣).

في الآية التي تسبق هذه الآية زجر الله الْكَافِرِينَ بِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٢١)﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ بِآذَانِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَلا عَمَلٍ، فَهُمْ كَالَّذِي لَمْ يَسْمَعْ أَصْلاً؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا سَمِعَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، فوصفهم وصفًا يحمل العقلاء على النفور منهم فَقَالَ: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ(٢٢)﴾ قوله:{الصُّمُّ} أَيْ: عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿ الْبُكْمُ﴾ عَنْ فَهْمِهِ؛ وُصِفُوا بِذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِمْ مِمَّنْ يَسْمَع وَيَنْطِق، لِعَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِالسَّمْعِ وَالنُّطْق، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لا فَهْمَ لَهُمْ صَحِيحٌ، وَلا قَصْدَ لَهُمْ صَحِيحٌ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٥/ ١٤٢٨ وينظر: الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣٩١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٦٧-ح/ ١٢٨(كتاب الْفِتَنِ، بَابٌ فِي بَقِيَّةٍ مِنْ أَحَادِيثِ الدَّجَّالِ).

(٤) ينظر: الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٣٩٤.

لَوْ فُرِضَ أَنَّ لَهُمْ فَهْمًا فَقَالَ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ أَيْ: فِي هَؤُلاءِ الصُّمِّ الْبُكْمِ ﴿خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ [1].

وقد عبر العلماء عن معنى(الخير) في الآية بعبارات وإن كانت مختلفة الألفاظ لكنها قريبة في المعنى والمضمون، فذهب كثير من العلماء إلى أن(الخير) في الآية الصدق والإسلام، يقول الثعلبي:" ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ صدقًا وإسلامًا ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ لرزقهم الفهم والعلم بالقرآن "[2].

وعبر بعض العلماء عن(الخير) في الآية بالإيمان، يقول يحيى بن سلام:" الخير يعني الإيمان، وذلك قوله في الأنفال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني إيمانًا ﴿لأَسْمَعَهُمْ﴾ الإيمان "[3]. فمعنى الآية على هذا القول: أي ولو علم الله فيهم استعدادًا للإيمان والهداية لأسمعهم بتوفيقه القرآن والحكمة سماع تدبر وتفهم.

وذهب بعض العلماء أن(الخير): الصلاح، وأن معنى الآية: ولو علم الله أنهم يصلحون بما يورده من حججه وآياته لأسمعهم إياها ولم يخلف عنهم شيئًا منها [4].

وذهب بعض العلماء أن(الخير): الانتفاع، فمعنى الآية ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصم البكم ﴿ خَيْرًا﴾ أي: انتفاعًا بهدى الله ﴿ لَأَسْمَعَهُمْ﴾ لوفقهم الى أن يستمعوا ويستجيبوا، يَقولَ الزَّمَخْشَرِيُّ:" ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ﴾ فِي هَؤُلَاءِ الصُّمِّ الْبُكْمِ ﴿خَيْرًا﴾ أَيِ انْتِفَاعًا بِاللُّطْفِ ﴿ لَأَسْمَعَهُمُ﴾ اللُّطْف بهم حَتَّى يسمعوا سَمَاعَ

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٤١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٤/ ٣٤٢، وينظر: محاسن التأويل للقاسمي ٢٧٣/٥.

(٣) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام صـ١٧٤.

(٤) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٠/ ٨٤، وزاد المسير لابن الجوزي ١٩٩/٢ .

الْمُصَدِّقِين"[١]. وقيل: إن الكفار سألوا رسول الله(ﷺ) أن يُحيى لهم قصيّ بن كلاب وغيره من أمواتهم؛ ليخبروهم بصحة نبوته(ﷺ)، فبين الله ــ تعالى ــ أنه لو علم فيهم خيرًا، وهو انتفاعهم بقول هؤلاء الأموات لأحياهم حتى يسمعوا كلامهم، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون هذا الكلام إلا على سبيل العناد والتعنت، وإنه لو أسمعهم الله كلام قصي وغيره لتولوا عن قبول الحق ولأعرضوا عنه على عادتهم المستمرة[٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني: لو علم أنهم يصغون ﴿ لأَسْمَعَهُمْ﴾ [٣].

ومن العلماء من ذهب إلي عموم الخير في الآية، فالمعنى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ أي في هؤلاء الصم البكم ﴿ خَيْرًا﴾ أي شيء من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحرّي الحق واتباع الهدى﴿ لأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم ولوقفوا على الحق وآمنوا بالرسول(ﷺ) وأطاعوه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو أسمعهم سماعَ تفهّمٍ وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولّوا عما سمِعوه من الحق ولم ينتفعوا به قطّ، أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلاً [٤].

ويبدو أن السياق اللغوي للآية يدل على عموم(الخير)؛ لأن قوله: ﴿ خَيْرًا﴾ نكرةٌ في سياق الشرطِ فهي تَعُمّ، فهي تدلُّ على أن اللَّه لو يَعْلَم فيهم خَيْرًا ما، في وَقْتٍ ما، كائنًا ما كان، فَهُمْ مَنْفِيّ عنهم جميع الخيرِ لا يطلبونه أبدًا، والخبثُ باقٍ

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٢٠٩، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٠٠/٥.
(٢) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٣/ ٣٨٧.
(٣) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٢/ ٣٠٧، وزاد المسير لابن الجوزي ١٩٩/٢.
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٥/٤، وروح المعاني للألوسي ١٧٦/٥.

فيهم أبدًا، فكان الجزاءُ دائمًا أبدًا، ومن هنا تطابق الجزاء والعمل؛ لذا قال على سبيل الفرض: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فهم مجبولون على الكفر لا يزول أبدًا، ومما يوضح ذلك: أنهم لَمَّا عاينوا النارَ، وشاهدوا الحقائقَ، وَتَمَنَّوُا الردَّ إلى الدنيا مرةً أخرى، صرَّح اللَّهُ بأنه لو رَدَّهُمْ إلى الدنيا لرجعوا إلى كفرهم، كما قال: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٨) فهذا يدلُّ على أنهم لا يَنْفَكُّونَ عن كفرهم، وأنهم دائمون عليه أبدًا.

فالآية كنايةٌ عن انتفاءِ قبولهم للإيمان وإعراضهم عَمَّا جاء به الرَّسُولُ(ﷺ)، والمعنى: وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ، يعني استعدادًا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم وقبولًا للهدى وإقبالًا على الحق لأسمعهم ما ينصرفون عن سماعه، يقول ابن عاشور:" فَالْمَعْنَى: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِي نُفُوسِهِمْ قَابِلِيَّةً لِتَلَقِّي الْخَيْرِ لَتَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ بِخَلْقِ نُفُوذِ الْحَقِّ فِي نُفُوسِهِمْ... وَلَكِنَّهُمُ انْتَفَتْ قَابِلِيَّةُ الْخَيْرِ عَنْ جِبِلَّتِهِمُ الَّتِي جُبِلُوا عَلَيْهَا فَلَمْ تَنْفُذْ دَعْوَةُ الْخَيْرِ مِنْ أسماعهم إلى تعقلهم... فَوَقَعَتِ الْكِنَايَةُ عَنْ عَدَمِ اسْتِعْدَادِ مَدَارِكِهِمْ لِلْخَيْرِ، بِعِلْمِ اللَّهِ عَدَمَ الْخَيْرِ فِيهِمْ، وَوَقَعَ تَشْبِيهُ عَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِفَهْمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ بِعَدَمِ إِسْمَاعِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ؛ لأَنَّ الآيَاتِ كَلَامُ اللَّهِ فَإِذَا لَمْ يَقْبَلُوهَا فَكَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُسْمِعْهُمْ كَلامَهُ، فَالْمُرَادُ انْتِفَاءُ الْخَيْرِ الْجِبِلِّيِّ عَنْهُمْ، وَهُوَ الْقَابِلِيَّةُ لِلْخَيْرِ "[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال :٧٠).

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ عَقِيبَ غزوة بَدْرٍ فِي أَسْرَى بَدْرٍ، فقد كان لَهُمْ مَيْلاً إِلَى الإِسْلامِ وَأَنَّهُمْ يُؤَمِّلُونَهُ إِنْ فُدُوا وَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وكان

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٩/ ٣٠٧.

ممن أسر الْعَبَّاس بن عبد المطلب عم رسول الله(ﷺ)، وَعَقِيل بْن أَبِي طَالِب، ونَوْفَل بْن الْحَارِثِ، وكَانَ الْعَبَّاسُ أَحَد الْعَشَرَة الَّذِينَ ضَمِنُوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر، فَبَلَغَت النَّوْبَةُ إِلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَافْتَتَلُوا قَبْلَ أَنْ يُطْعِمَ، وَمَعَهُ عِشْرُونَ أُوقِيَّة مِنَ الذَّهَبِ أَخْرَجَهَا لِيُطْعِمَ النَّاسَ، فَأُخِذَتْ مِنْهُ وَقْتَ الْحَرْبِ، فلما أسر الْعَبَّاسُ كلم رسول الله (ﷺ) أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فَأَبَى رسول الله(ﷺ)، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: كُنْتُ مُسْلِمًا إلا أَنَّهُمْ أَكْرَهُونِي، فَقَالَ(ﷺ): أَمَّا شَيْءٌ خَرَجْتَ لِتَسْتَعِينَ بِهِ عَلَيْنَا فَلا، وإِنْ يَكُنْ مَا تَذْكُرُهُ حَقًّا فاللَّه يَجْزِيكَ، فَأَمَّا ظَاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا، وأمره النبي(ﷺ) أَنْ يُفْدِي ابْنَيْ أَخَوَيْهِ، وهما نَوْفَل ابْن الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، وعَقِيل بْن أَبِي طَالِب ابْن عَبْد الْمُطَّلِب، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: تَرَكْتَنِي يَا مُحَمَّدُ أَتَكَفَّفُ قُرَيْشًا، فقال رسول اللَّه(ﷺ): أَيْنَ الذَّهَب الَّذِي دَفَعْتَهُ إِلَى أُمِّ الْفَضْلِ وَقْتَ خُرُوجِكَ مِنْ مَكَّة وَقُلْتَ لَهَا: لا أَدْرِي مَا يُصِيبُنِي، فَإِنْ حَدَثَ بِي حَادِثٌ فَهُوَ لَكِ ولِعَبْدِ اللَّه وَعُبَيْدِ اللَّه وَالْفَضْلِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: أَخْبَرَنِي بِهِ رَبِّي، قَالَ الْعَبَّاسُ: فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَأَنه لا إِلَهَ إِلا اللَّه وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، واللَّه لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلا اللَّه، وَلَقَدْ دَفَعْتُهُ إِلَيْهَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ، وَلَقَدْ كُنْتُ مُرْتَابًا فِي أَمْرِكَ، فَأَمَّا إِذْ أَخْبَرْتَنِي بِذَلِكَ فَلا رَيْبَ. وأمر ابني أخيه عقيل ونوفل ابن الحارث فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى﴾ يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يعني إيمانًا صَحِيحًا وتصديقًا ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: شَيْئًا أَخْيَر وأفْضَل مما أُخِذَ منكم مِنَ الفِدَاء، يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني ما سلف منكم قبل الإيمان، قَالَ الْعَبَّاس: فَأَبْدَلَنِي اللَّه خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ، لِي الآنَ عِشْرُونَ عَبْدًا، وَإِنَّ أَدْنَاهُمْ لَيَضْرِبُ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا، وَأَعْطَانِي زَمْزَمَ، وَمَا أُحِبّ أَنَّ لِي بِهَا جَمِيعَ أَمْوَالِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّي. وَرُوِيَ

أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّه(ﷺ) مَالُ الْبَحْرَيْنِ، نثره رسول الله(ﷺ) في المسجد ووزّعه، وجاء العباس وقال: يا نبيّ الله أعطني! فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: احث من هذا المال، فحثا العباس في خميصة كانت عليه، ولم يزل يحثو فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي(ﷺ): مُر أحدًا منهم يرفع معي المال، فتبسّم(ﷺ) حتى بدا ضاحكه أو نابه وقال: لا يُعِينُكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فقال له: ارفعه أنت عليّ، فقال: لا، اردُد طائفة من المال حتَّى تَسْتَطِيعَ حَمْلَهُ، فحثا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله، وقال العباس حينئذ: أَمَّا أَحَد اللَّذَيْن وَعَدَ اللَّهُ فَقَدْ أَنْجَزَنَا وَمَا نَدْرِي مَا يَصْنَعُ فِي الأُخْرَى. التي هي: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (١).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن(الخير) في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ هو الإسلام، يقول الطبري:" ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يَقُولُ: إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ إِسْلامًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ مِنَ الْفِدَاء "(٢). فمعنى الآية إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا: أي إرادةً للإسلام كما زعمتم بأن تُظهروا الإسلام فإنَّه سيعطِيكمْ أفضل مِمَّا أُخِذ منكم بالفداء.

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٢٤٥، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٥/ ٥١٣، ولباب التأويل للخازن ٣٢٩/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٥٥/٥، والعَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ ١٩٣/٥.

(٢) جامع البيان للطبري ١١/ ٢٨٤، وينظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٥٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٣٥٦.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن(الخير) في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ هو الإيمان الذي علم أنهم اعتقدوه في قلوبهم [١]. يقول الفخر الرازي في هذه الآية:" يجب أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخَيْر: الإِيمَانُ وَالْعَزْمُ عَلَى طَاعَةِ اللَّه وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِي جَمِيعِ التَّكَالِيفِ، وَالتَّوْبَة عَنِ الْكُفْرِ وَعَنْ جَمِيعِ الْمَعَاصِي، وَيَدْخُل فِيهِ الْعَزْم عَلَى نُصْرَةِ الرَّسُولِ، وَالتَّوْبَة عَنْ مُحَارَبَتِهِ "[٢]. وعبر بعض العلماء عن هذا الخير بما يوافق صفة الإيمان وهو (الإخلاص) يقول ابن عباس:" ﴿ إِن يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ تَصْدِيقًا وإخلاصًا ﴿ يُؤْتِكُمْ﴾ يعطكم ﴿خَيْرًا﴾ أفضل﴿ مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الْفِدَاء "[٣]. ويقول الزمخشري:" ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان وصحة نية "[٤].

ويبدو أن الراجح في المراد بـ(الخير) الإيمان، بدليل السياق القبلي وهو قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فمحل الإيمان هو القلب، ولذا قالوا: إن الإيمان تصديق وعمل، أما الإسلام فيكون باللسان، ولذا أسند وجود الخير في قلوبهم إلى علم الله- تعالى- للإشارة إلى أن ادعاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذي فقدوه ولا يوصلهم إلى مغفرة الله- تعالى- فعليهم أن يخلصوا لله في إيمانهم حتى ينالوا فضله وثوابه.

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٢٦٦/٥، والكشف والبيان للثعلبي ٣٧٤/٤، وتفسير القرآن للسمعاني ٢٨١/٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٣١٢/٢، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٦٧/٣ ، ولباب التأويل للخازن ٣٢٩/٢.

(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٥/ ٥١٣.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ١٥٢.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢/ ٢٣٨.

فقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نَظَر الله من عبده إنما هي القلوب؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر، والله ــ تعالى ــ عالمٌ بما في الضمائر وما يخطر في القلوب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

ومما يدل- أيضًا- على أن المراد بـ(الخير) الإيمان السياق البعدي؛ حيث إنه لَمَّا ذَكَرَ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الْعِوَضِ لِمَنْ عَلِمَ فِي قَلْبِهِ خَيْرًا ذَكَرَ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بِمَا قَالُوهُ لَكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، مِنْ أَنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا بِكَ وَصَدَّقُوكَ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَنْ عَزِيمَةٍ صَحِيحَةٍ وَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ، بَلْ هُوَ مُمَاكَرَةٌ وَمُخَادَعَةٌ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَبْعَدٍ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ فَعَلُوا مَا هُوَ أَعْظَم مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَظْفَرَ بهم، فَكَفَرُوا بِهِ وَقَاتَلُوا رَسُولَهُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ بِأَنْ نَصَرَكَ عَلَيْهِمْ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، فَقَتَلْتَ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلْتَ، وَأَسَرْتَ مَنْ أَسَرْتَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي ضَمَائِرِهِمْ حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ بِهِمْ [1]. وقد قال المفسرون إن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ نزلت في الأسارى، وقال ابن جريج: أراد بالخيانة هاهنا: الخيانة في الدين وهو الكفر، يعني إن كفروا بك فقد خانوا الله من قبل أن كفروا بالله ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ببدر[2]. قال القرطبي:" لَمَّا أُسِرَ مَنْ أُسِرَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَكَلَمَ قَوْمٌ مِنْهُمْ بِالإِسْلامِ وَلَمْ يُمْضُوا فِيهِ عَزِيمَةً وَلا اعْتَرَفُوا بِهِ اعْتِرَافًا جَازِمًا، وَيُشْبِهُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَقْرُبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلا يَبْعُدُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٢/ ٣٧٤.

(٢) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٠/ ٢٦٣.

عُلَمَاؤُنَا: إِنْ تَكَلَّمَ الْكَافِرُ بِالإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَبِلِسَانِهِ وَلَمْ يُمْضِ فِيهِ عَزِيمَةً لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا "(١).

فهذا كله يدل على أن الخير معلق بأن تصلح قلوبهم فتتفتح لنور الإيمان، فيعلم الله أن فيها خيرًا .

٥- قوله تعالى: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٣١).

هذه الآية تحكي لنا جزءًا من قصة نبي الله نوح(ﷺ) مع قومه، فبعد أن دعاهم إلى اتباعه وعبادة الله بقوله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)﴾ ردوا عليه بالطعن في نبوّته من ثلاث جهات بقولهم: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ وَالْجِهَة الثَّانِيَة:{وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} أي: في ظَاهِرِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّقٍ، وَالْوَجْه الثَّالث:﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ خَاطَبُوهُ فِي الْوَجْهَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مُنْفَرِدًا، وَفِي هَذَا الْوَجْهِ خَاطَبُوهُ مَعَ مُتَّبِعِيهِ، أَيْ: مَا نَرَى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل تتميزون به وتستحقون ما تدّعونه، بل إنهم طلبوا من نبي الله نوح أن يطرد الفقراء الذين اتبعوه من المؤمنين، فَقَوْله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كَالْجَوَابِ عَمَّا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِمْ: وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا مِنَ التَّلْمِيحِ مِنْهُمْ إِلَى إِبْعَادِ الأَرَاذِلِ عَنْهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ سَأَلُوهُ طَرْدَهُمْ تَصْرِيحًا لا تلميحًا، ثم بَيَّنَ لَهُمْ فِي قَوْلُهُ: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ﴾ أَنَّهُ كَمَا لا يَطْلُب مِنْهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، كَذَلِكَ لا يَدَّعِي أَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِن اللَّهِ حَتَّى يَسْتَدِلُّوا

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/٥٥.

بِعَدَمِهَا عَلَى كَذِبِهِ، كَمَا لا أقول إني: ﴿ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أَيْ: وَلا أَدَّعِي أَنِّي أَعْلَمُ بِغَيْبِ اللَّهِ حَتَّى أَصِلَ بِهِ إِلَى مَا أُرِيدُ لِنَفْسِي أو لأَتْبَاعِي {وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} حَتَّى تَقُولُوا مَا نَرَاكَ إلا بَشَرًا مِثْلَنَا، ثُمَّ إِنَّهُ أَكَّدَ هَذَا الْبَيَانَ بِطَرِيقٍ رَابِعٍ فَقَالَ: ﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ من الإيمَان به وَالإخْلاص له ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فعلينا تَسْلِيم الأمر لِلَّهِ[1].

وقد ذهب العلماء إلى أن المراد من الخير في الآية هو الإيمان، يقول ابن عباس: " ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا﴾ لن يكرمهم الله بِتَصْدِيق الإيمَان ﴿ الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِمَا فِي قُلُوبهم من التَّصْدِيق "[2]. ويقول مقاتل:" ﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعنى السفلة ﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ يعني إيمانًا وإن كانوا عندكم سفلة ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بما في قلوبهم- يعني السفلة- من الإيمان "[3].

والسياق اللغوي يؤكد هذا المعنى، فقد قالوا لنبي الله نوح(عليه السلام){وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ} فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّقٍ، يعني أنهم اتبعوك ظاهرًا من غير أن يتفكروا باطنًا، وقال نوح(عليه السلام) للقوم ردًا على ادعائهم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: بما في قلوبهم من التصديق

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٧/ ٣٤٠، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٥٦٠.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ١٨٤، وينظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٣٨٧، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ٦/ ١٢٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/ ٤٤٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٣٧٠.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٢٧٩ وما بعدها.

والمعرفة، وهذا كالدلالة على أنهم كانوا يَنْسُبُونَ أتباعَهُ مع الفَقْرِ وَالذِّلَّةِ إلى النفاق، وهذا يناسب معنى الإيمان.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (هود:٨٤).

المتتبع لسيرة الأنبياء- عَلَيْهِم السَّلام- يلاحظ أنهم يَشْرَعُونَ فِي أوَّل الأمرِ بالدَّعوة إلى التوحيد، فلهذا قال شُعَيْبٌ ــ عليهِ السلام ــ: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ ثُمَّ إنهم بعد الدعوة إلى التَّوْحِيدِ يَشْرعون في الأهم ثم الأهمِّ، فانتقلَ شعيب-عليه السلام- إلى ما هو خاصٌّ بهم من الأحكامِ العملية، ولما كان المعتادُ من أهلِ مَدْيَن البَخْس في المكيال والميزانِ، دعاهم إلى ترك أبرز الرذائل التي كانت منتشرة عندهم فقال: ﴿ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي إنَّهُ تعالى أتاكم بالخيرِ والرزق الكثير والثروة الواسعة في المال والرُّخْص والسَّعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف.

واختلف العلماء في معنى (الْخَيْرِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ شُعَيْب أَنَّهُ قَالَ لِمَدْيَنَ إِنَّهُ يَرَاهُمْ بِهِ على أقوال-

القول الأول: كَانَ ذَلِكَ رُخْص السِّعْرِ، وَحَذَّرَهُمْ غَلاءَهُ، وممَنْ قَالَ ذَلِكَ ابْن عَبَّاسٍ ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قَالَ: رُخْصُ السِّعْرِ{وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} قَالَ: غَلاء سِعْرٍ، وروى ذلك عَن الْحَسَنِ ومجاهد(١).

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٥٣٨، وبحر العلوم للسمرقندي ١٢/ ١٦٦، والبحر المحيط لأبي حيان ٦/ ١٩٥، والدر المنثور للسيوطي ٤/٤٦٦.

القول الثاني: عَنَى بِذَلِكَ: إِنِّي أَرَى لَكُمْ مَالاً وَزِينَةً مِنْ زِينِ الدُّنْيَا، روى ذلك عَنْ قتادة فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قَالَ: يَعْنِي خَيْرَ الدُّنْيَا، وَزِينَتَهَا، وعَنْ قَتَادَةَ-أيضًا- قَوْلُهُ: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أَبْصَرَ عَلَيْهِمْ قِشْرًا مِنْ قِشْرِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا. وقَالَ عَبْدَ الرَّحْمَن زَيْد بن أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ:{إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} قَالَ: فِي دُنْيَاكُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٠] سَمَّاهُ خَيْرًا؛ لأَنَّ النَّاسَ يُسَمُّونَ الْمَالَ خَيْرًا [(١)].

ويحتمل تأويلاً ثالثًا: أنه الخصب والسعة والكسب [(٢)]. يقول مقاتل بن سليمان: " ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يعني موسرين في نعمة "[(٣)]. ويقول ابن أبي زَمَنِين:" ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أَيْ: بِخَيْرٍ مِنَ اللَّهِ، يَعْنِي: السَّعَة وَالرِّزْق"[(٤)].

وذهب بعض العلماء إلى أن" قوله: بِخَيْرٍ: عامّ في جميع نعم الله تعالى "[(٥)]. فالخير: كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره. وهذا الرأي رجحه كثير من العلماء، يقول النحاس:" قال الحسن كان سعرهم رخيصًا، والذي توجه اللغة أن يكون عامًا "[(٦)]. ويقول الطبري مرجحًا- أيضًا- هذا الرأي:" وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ شُعَيْب أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٥٣٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٧١.

(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٩٥، وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ٣٦٦/٣.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٢٩٤.

(٤) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٢/ ٣٠٤.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٣/ ٢٩٦، وينظر: التفسير الوسيط للزحيلي ١٠٦٥/٢.

(٦) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس(ت:٣٣٨هـ) ٣/ ٣٧٣- حققه: محمد علي الصابوني- جامعة أم القرى – مكة المكرمة- ط١-١٤٠٩هـ.

﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يَعْنِي بِخَيْرِ الدُّنْيَا، وَقَدْ يَدْخُلُ فِي خَيْرِ الدُّنْيَا الْمَال، وَزِينَة الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرُخْص السِّعْرِ، وَلا دَلَالَةَ عَلَى أَنَّهُ عَنَى بَعْض خَيْرَاتِ الدُّنْيَا دُونَ بَعْضٍ، فَذَلِكَ عَلَى كُلّ مَعَانِي خَيْرَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ كَانُوا أُوتُوهَا "[1].

يتضح مما سبق أن الراجح هو عموم لفظ (الخير) ليشمل خيرات الدنيا التي ترضي الإنسان؛ لأنه لا يوجد في سياق الآية ما يدل على أنه أراد بعض خيرات الدنيا دون بعض، ومما يدل على ذلك السياق اللغوي؛ حيث جاء لفظ الخير منكرًا مما يدل علي عمومه، ولا شك أن عموم الخير هنا ليشمل خيرات الدنيا أولى من تخصيصه بنعمة معينة؛ لأن التعميم فيه من الذم ما لا يخفى، فهم لم يعطوا نعمة واحدة بل أعطوا الكثير والكثير، والذي يحمل المرء على النقصان والظلم قلة ذات اليد وضيق الحال، وبالتالي يكون المعنى: كيف تنقصون في المكيال والميزان وأنتم قد أعطيتم من النعم الكثيرة ما لا يخفى، فإني أراكم تملكون الوفير من المال، وتعيشون في رغد من العيش، وفي بسطة من الرزق، وفي رخص من السعر، وفي غير ذلك من النعم، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بشكر واهبها وهو الله- تعالى- وأن يستعملها استعمالاً يرضيه، وأن يعطى كل ذي حق حقه، ولذا جاء التحذير من مخالفة ذلك، فبين لهم الأسباب التي دعته إلى نهيهم فقال: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ ومحيط: أي شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه، كما يحيط الظرف بالمظروف، فما من عضو إلا ويصيبه العذاب، ويحيط به، ليس كعذاب الدنيا يأخذ جزءًا دون جزء، بل يحيط به.

(١) جامع البيان للطبري ١٢/ ٥٣٩.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:٧٦).

بعد أن نهى الله ــ تعالى ــ عن الإشراك به في قوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ(٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(٧٤)﴾ ، أي ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانًا لا تملك لهم رزقًا من السموات والأرض، ثم أعقب ذلك بما يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات، وفساد مساواتهم آلهتهم بالله، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي ضرب الله مثلًا لنفسه والآلهة التي يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يُفهِم ولا يَفْهم، فالأَبْكَمُ هو الذي ولد أخرس، فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ لا يقدر على شيء مما يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل، فهو عالة وثقيل على من يلي أمره ويعوله، وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أي شيء على الإطلاق، حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأت بنفع ونجح ولا كفاية، وثانيهما: رجل كامل المواهب سليم الحواس، عاقل ينفع نفسه وغيره، يأمر الناس بالعدل، يعني هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات وذو رشد وديانة، يأمر الناس بالعدل والخير، وَهُوَ في نفسه عَلى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، أي وهو على سيرة صالحة ودين قويم، فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين: نفعه لغيره، وصلاحه في ذاته، هل يستويان؟ (١).

وعلى كل حال فالمراد من(الخير) في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهمه لم ينفع ولم يأت بنجح (٢). يقول الواحدي:" ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ الصنم من شرق أو غرب لا يأت بخير، يقول: لا يرزقهم ولا ينفعهم "(٣).

فقوله: ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لا يحقق خيرًا مطلقًا؛ لعدم فهمه ما يقال له، ولا إفهام غيره، وهو عديم النفع، كالصنّم لا يسمع ولا ينطق، والسياق اللغوي يدل علي أن قوله: ﴿ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لا يَأْتِ بِأي خَيْرٍ مهما قل، ولا يأت بنفع وصلاح؛ لمقابلته بمن يأمر بالعدل، والذي يأمر بالعدل يكون فيه نفع وصلاح لغيره، وهو على صراط مستقيم في ذاته، فهو نافع لنفسه.

ومما يدل على أنه لا يأتي بأي خير التعبير القرآني؛ حيث قال: ﴿ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيءٍ﴾ ولم يقل: ما يقدر على شيء؛ لأن(ما) يخلص الفعل للحال و(لا) عند الأكثر إنما يخلصه للاستقبال، فهذا تنبيه على أن عجزه لازم لا ينفك، إذ لو عبر بـ(ما) بقى للحال، ولتوهم أنه يقدر على ذلك في المستقبل، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ولم يقل: ومن على صراط مستقيم؛ لئلا يتوهم أنه قد

(١) ينظر: تفسير المراغي ١٤/ ١١٥.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٢/٢٢٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣/٩٠، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤/٢٩٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٣٩١.

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٣/ ١٤٨.

يأمر بالعدل رياء وسمعة وقد يكون مُصرًا على المعاصي وهو يأمر بالعدل ليمدح [1].

٨- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:١١).

جاءت هذه الآية مصورة لحال صنف من أَهل الضلال، وهم أُولئك المذبذبون في عقائدهم، الذين لا يستقرون فيها على حال، بل يتقلبون فيها وفق المنافع والمضار ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي ومن الناس من يعبده تعالى على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلا فرّ، يقول الأزهري:" الإنسانُ يكونُ على حَرْفٍ من أَمْره: كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ ويتوقَّعُ، فإِنْ رَأَى من نَاحِيَتِهِ مَا يحبُّ، وإِلاَّ مَالَ إِلَى غَيْرِهَا، وَقَالَ الله ــ جلّ وَعزــ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أَي إِذا لَمْ يَرَ مَا أَحَبَّ انْقَلَبَ عَلَى وَجهه... قَالَ أَبُو إسحاقَ في تفسيرِ هَذِه الآيَة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ جَاءَ فِي التفسيرِ: على شَكَ، قَالَ: وحقيقَتُهُ أَنَّه يعبدُ الله على حرفِ الطَّرِيقَة فِي الدّين، لا يدخُلُ فِيهِ دُخُول مُتَمَكنٍ... عَن أَبِي الْهَيْثَم أَنه قَالَ: أما تسميتُهم الْحَرْف حَرْفًا فحرْفُ كل شيءٍ ناحيته كحرْفِ الجَبَلِ والنهرِ والسيفِ وغيرِهِ، قلتُ: كأَنَّ الْخَيْر والخصْب ناحيةٌ، والضّر والشَّرّ وَالْمَكْرُوه ناحية أُخْرَى، فهما حرفان، وعَلى العبْدِ أَن يَعْبُدَ خالِقَه على حَالَة السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، ومَنْ

(١) ينظر: تفسير ابن عرفة لأبي عبد الله محمد بن عرفة المالكي(ت:٨٠٣هـ) ٣/ ٣٨ - حققه: جلال الأسيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت – ط١- ٢٠٠٨م.

عَبَدَ الله على السَّرَّاءِ وحْدَهَا دون أَن يَعْبُدَه عَلَى الضَّرَّاءِ يَبْتَلِيه الله بِهَا فَقَدْ عَبَدَهُ على حَرْفٍ "[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ﴾ أي دنيويّ من صحة وسعة ﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي ثبت على ما كان عليه ظاهرًا {وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ} أي ما يفتتن به من مكروه ينزل به ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي رجع إلى ما كان عليه من الكفر.

سبب نزول الآية: هناك سببان لنزول الآية -

أحدهما: عن أَبي سعيد قال: أَسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فتشاءَم من الإِسلام، فأَتى النبي(ﷺ) فقال: أَقِلْنِي. فقال: إِن الإِسلام لا يُقَال، فقال: لم أُصب من ديني هذا خيرًا، ذهب بصرى ومالي ومات ولدى، فقال(ﷺ): يا يهودي: الإِسلام يَسْبِكُ الرجال كَمَا تَسْبِكُ النَّارُ خَبَثَ الحَدِيد والذَّهَب والفِضَّة. فنزلت الآية.

الثاني: ذكر الضَّحَّاك في سبب نزول الآية، قال: كَانَ نَاسٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَمِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرَى، كَانُوا يَقُولُونَ: نَأْتِي مُحَمَّدًا(ﷺ) فَنَنْظُر فِي شَأْنِهِ، فَإِنْ صَادَفْنَا خَيْرًا ثَبَتْنَا مَعَهُ، وَإِلا لَحِقْنَا بِمَنَازِلِنَا وَأَهْلِينَا، وَكَانُوا يَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ عَلَى دِينِكَ فَإِنْ أَصَابُوا مَعِيشَةً، وَنَتجت خَيْلُهُمْ، وَوَلَدَتْ نِسَاؤُهُمُ الْغِلْمَانَ، اطْمَأَنُّوا وَقَالُوا: هَذَا دِينُ صِدْقٍ وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمُ الرِّزْقُ ولم تنجب خُيُولُهُمْ، وَوَلَدَتْ نِسَاؤُهُمُ البنات، قَالُوا: هَذَا دِينُ سُوءٍ فَانْقَلَبُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ [2].

والمعنى الإجمالي للآية: أن هناك صنفًا من الناس يقف على مفارق الطريق بين الإيمان والكفر، يضع إحدى رجليه على طريق الإيمان، ويضع الأخرى على طريق الكفر﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على جانب واحد، وطرف

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ١٠ وما بعدها (ح ر ف) .

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦/ ٤٧٢، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ٣١٧.

من الدين لا تعمق له فيه، فإن أصابه في دنياه خير كالرخاءِ والولد ومسّته عافية، اطمأن، ووضع رجليه معًا على طريق الإيمان، وثبت على هذا الطرف ثبات المستفيد لا ثبات المؤمن المتيقن ﴿ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ومكروه في نفسه، أَو أَهله، أَو ماله ﴿ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ الذي كان متجهًا إليه، فارتد ورجع عن دينه وأعطى الإيمان ظهره ﴿ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ﴾ فهو قد خسر الدنيا؛ لأن كفره بالله لا يدفع عنه ما ابتلاه الله به، وهو قد خسر الآخرة؛ لأنه سيلقى الله على كفره هذا، وللكافرين عذاب أليم [1].

وقد فسر العلماء لفظ الخير بعبارات قريبة من بعضها، فعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾، يَعْنِي: رَخَاء، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: إِنْ أَصَابَ خَصْبًا وَرَفَاهَةً فِي الْعَيْشِ وَمَا يَشْتَهِي اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَنَا عَلَى حَقٍّ وَأَنَا أَعْرِفُ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ [2]. ويقول الطبري:" ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ وَهُوَ السَّعَةُ مِنَ الْعَيْشِ وَمَا يُشْبِهُهُ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا ﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يَقُولُ: اسْتَقَرَّ بِالإِسْلَامِ، وَثَبَتَ عَلَيْهِ ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وَهُوَ الضِّيقُ بِالْعَيْشِ وَمَا يُشْبِهُهُ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا "[3].

فالمراد من الخير كما هو واضح من سياق الآية وأسباب النزول: الخير الدنيوي، وهو ما يوافق الطبع، كالرخاء وَالخصْب وكَثْرَة المال والسعة في المعيشة، والعافية والصحة في البدن، والزيادة في نتاج الولد ونسل الحيوان، فالخير هو ما تُسر به النفس من أنواع الجمال.

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٩٩٤/٩.

(٢) ينظر: تفسير مجاهد صـ٤٧٧، وتفسير يحيى بن سلام ١/ ٣٥٦.

(٣) جامع البيان للطبري١٦/ ٤٧٢، وينظر: معاني القرآن للزجاج ٤١٤/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٧، وبحر العلوم للسمرقندي ٢/ ٤٥١، والكشف والبيان للثعلبي ١٠/٧.

والقرآن الكريم كثيرًا ما تحدث عن انتهازية المنافقين ونفعيتهم بما يقارب الآية السابقة، من ذلك قول الله- تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ (البقرة:٢٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاس: يَكَادُ مُحْكَمُ الْقُرْآن يَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُنَافِقِينَ ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يَقُولُ: هَذَا الْمُنَافِقُ، إِذَا كَثُرَ مَالُهُ وَكَثُرَتْ مَاشِيَتُهُ وَأَصَابَتْهُ عَافِيَةٌ قَالَ: لَمْ يُصِبْنِي مُنْذُ دَخَلْتُ فِي دِينِي هَذَا إِلا خَيْرٌ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ يَقُولُ: إِذَا ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ وَهَلَكَتْ مَوَاشِيهِمْ وَأَصَابَهُمُ الْبَلاءُ قَامُوا مُتَحَيِّرِين ورْاجِعين إِلَى الْكُفْرِ، فَجَعَلَ الله الْبَرْقَ لإِيمَانِهِمْ مَثَلاً، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمُ الإِيمَانُ وَإِضَاءَتَه لَهُمْ أَنْ يَرَوْا فِيهِ مَا يُعْجِبُهُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَإِصَابَةِ الْغَنَائِمِ فِي الْمَغَازِي، وَكَثْرَةِ الْفُتُوحِ، وَمَنَافِعِهَا، وَالثَّرَاءِ فِي الأَمْوَالِ، وَالسَّلامَةِ فِي الأَبْدَانِ وَالأَهْلِ وَالأَوْلادِ، فَذَلِكَ إِضَاءته لَهُمْ ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ ثَبَتُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ، كَمَا يَمْشِي السَّائِرُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الصَّيِّبِ ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ وَمَعْنَى إِظْلام ذَلِكَ: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كُلَّمَا لَمْ يَرَوْا فِي الإِسْلامِ مَا يُعْجِبُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ عِنْدَ ابْتِلَاءِ اللَّهِ مُؤْمِنِي عِبَاده بِالضَّرَّاءِ وَتَمْحِيصِهِ إِيَّاهُمْ بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلاءِ مِنْ إِخْفَاقِهِمْ فِي مَغْزَاهُمْ وَإِنَالَةِ عَدُوِّهِمْ مِنْهُمْ، أَوْ إِدْبَارٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ؛ أَقَامُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَثَبَتُوا عَلَى ضَلالَتِهِمْ[1].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ (التوبة:٤٢) والعرض: هو المنافع، فعادتهم اتباع المنافع وإليها يميلون، يعني: المنافقين، وأما المؤمنون فإنهم يعبدون اللَّه في كل حال، في حال السعة، وفي حال الضيق. ونحو ذلك- أيضًا- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (العنكبوت:١٠) ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ فَتْحٌ وَمَغَانِمُ {لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أَيْ: إِنَّا إخوانكم في الدين.

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١/ ٣٨٠.

٩- قوله تعالى: ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:٥٦).

في الآيات التي قبل هذه الآية ذكر الله ــ تعالى ــ مخاطبًا الأنبياء بقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢) أَيْ: دِينُكُمْ- يَا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ- دِينٌ وَاحِدٌ، وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، واختلاف الشرائع والأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال لا يسمى اختلافًا في الدين؛ لأن الأصول واحدة، وَقَوْلُهُ: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ (المؤمنون:٥٣) أَي: الأُمَمُ الَّذِينَ بُعث إِلَيْهِمُ الأَنْبِيَاء، وقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيْ: يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلالِ ؛ لأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِدًا: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ انْتِقَالٌ بِالْكَلامِ إِلَى خطاب النبي(ﷺ) وَضَمِيرُ الْجَمْعِ عَائِدٌ إِلَى مَعْرُوفٍ مِنَ السِّيَاق، وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ، فَإِنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الأَحْزَابِ الَّذِينَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ وَالاسْتِفْهَامُ فِي أَيَحْسَبُونَ إِنْكَارِيٌّ وَتَوْبِيخٌ عَلَى هَذَا الْحُسْبَانِ، يَعْنِي: أَيُظَنُّ هَؤُلاءِ الْمَغْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَّتِهِمْ عِنْدَنَا! كَلا لَيْسَ الأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥)، لقد أخطئوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلاءً؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [(١)].

وقد ذهب المفسرون إلى أن(الخير) في الآية بمعنى المال والولد، قال ابن عباس: أيحسب الذين بسطت لهم في الرزق فأغنيتهم وأكثرت أموالهم

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/ ٤١٧.

وأولادهم إن ذلك خير لهم بل هو شر لهم ﴿ لا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون غيبي[1]. ويقول مقاتل ابن سليمان:" ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يعني المال والولد لكرامتهم على الله- عز وجل- يقول: ﴿ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أن الذي أعطاهم من المال والبنين هو شر لهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (آل عمران:١٧٨) "[2]. ويقول الزجاج:" وتأويله أيحسبون أن إِمْدَادَ اللَّهِ لَهُمْ بالمال والبنين مجازاة لَهُمْ، وإنَّما هو استدراج من اللَّه لهم "[3].

وقد استدل الطبري بالسياق على أن الخير في الآية المال والولد، فقال:" عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، قَوْلُ اللَّهِ: ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ قَالَ: ﴿ يُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وَكَأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرَةَ وَجَّهَ بِقِرَاءَتِهِ ذَلِكَ كَذَلِكَ إِلَى أَنَّ تَأْوِيلَهُ: يُسَارِعُ لَهُمْ إِمْدَادُنَا إِيَّاهُمْ بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ فِي الْخَيْرَتِ"[4]. كما أن السياق القبلي يؤكد على معنى(الخير) ويفسره، وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ وهناك- أيضًا- آيات أخر تدل على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:٥٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧] ونحو ذلك مما أخبر أن ما يعطي إياهم يكون شرًّا لهم، وما أعطى المؤمنين يكون خيرًا لهم.

---

(١) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٥/ ٦١٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٥٩، وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١٣١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٦/٤.

(٤) جامع البيان للطبري ١٧/ ٦٥.

١٠- قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(١٩)﴾ (الأحزاب).

يُخْبِرُ الله ــ تَعَالَى ــ عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُعَوِّقِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ، فقد نزلت هاتان الآيتان في غزوة الأحزاب في المنافقين واليهود المثبطين للمسلمين عن الجهاد في سبيل الله، فكانوا يقولون لِلْمُسْلِمِينَ: مَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ إلا أَكَلَةُ رَأْسٍ، وَهُوَ هَالِكٌ وَمَنْ مَعَهُ، فَهَلُمَّ إِلَيْنَا، وقوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ كانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بُدّاً، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غُفل عنهم عادوا إلى المدينة، فهم لا يحضُرون القتال في سبيل الله ــ عزّ وجلّ ــ إلا قَلِيلاً للرِّياء والسُّمعة من غير احتساب، قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ بُخَلاءَ عَلَيْكُمْ، أَيْ بِالْحَفْرِ فِي الْخَنْدَقِ وبِالْقِتَالِ مَعَكُمْ وَبِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وبكل ما فيه منفعة لكم، ثم أخبر عن جُبنهم فقال: ﴿ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ﴾ أي: إذا حضر القتال ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: كدوَران عين الذي يُغْشَى عليه من الموت، وهو الذي دنا موته وغشيته أسبابُه، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره فلا يَطْرِف، فكذلك هؤلاء؛ لأنهم يخافون القتل ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَمَعْنَاهُ بَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِيكُمْ فِي وَقْتِ قِسْمَةِ الْغَنِيمَةِ، يَقُولُونَ: أَعْطِنَا أَعْطِنَا، فَإِنَّا قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ، فَعِنْدَ الْغَنِيمَةِ

أَشَحُّ قَوْمٍ وَأَبْسَطُهُمْ لِسَانًا، وَوَقْتَ الْبَأْسِ أَجْبَنُ قَوْمٍ، قَالَ النَّحَّاسُ: هَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ؛ لأَنَّ بَعْدَهُ ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في معنى الشح بالخير على أقوال:

قال بعضهم: الخير: القتال، يقول ابن سلام:" وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَشِحَّة عَلَى الْخَيْرِ: عَلَى الْقِتَالِ لا يُقَاتِلُونَ"(٢).

وقيل: الخير: النفقة في سبيل الله، يقول ابن عباس:" أَشِحَّة عَلَى الْخَيْرِ: بخيلة بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيل الله "(٣).

وقيل: ﴿ أَشِحَّة عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني على رسول الله(ﷺ) بظَفَره (٤). فهم يخافون على أنفسهم لو غلب النبي(ﷺ) ومن معه من المؤمنين.

وذهب البعض إلى عموم الشح بالخير، فهم- المنافقون واليهود- بخلاء بكل خير، فهم لا يعاونونكم في الحرب، ويحرصون على جمع الغنائم والأموال بكل وسيلة، ولكنهم لا ينفقون شيئًا منها في سبيل الله، ولا في غير ذلك من فنون الخير والبر، قال ابن كثير:" ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أَيْ: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقِلَّة الْخَيْرِ "(٥). ويقول الشوكاني:" وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ قَلِيلُو الْخَيْرِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ "(٦).

---

(١) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٤٥٤/٣ وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥٢/١٤ وما بعدها.

(٢) تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٠٩.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٣٥٢، وينظر: النكت والعيون للماوردي ٣٨٦/٤.

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣/ ٤٥٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٣٥٠.

(٦) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٣١١.

وذهب جمهور العلماء إلي أن قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني على مال الغنيمة، يقول مقاتل:" ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني الغنيمة "(١). ويقول الزجاج: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم وهم أَشِحَّة عَلَى المال والغنيمة "(٢). ويقول الواحدي:" ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: بخلاء بالغنيمة يشاحون المؤمنين عند القسمة، هذا قول المفسرين "(٣). ويقول الخازن:" ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: يشاحون المؤمنين عند الغنيمة فعلى هذا المعنى يكون المراد بالخير المال "(٤).

وكون المراد بقوله: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ القتال، أو الإنفاق في سبيل الله، فالسياق القبلي لا يؤيده؛ لأن الله ــ تعالى ــ قال: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ أي القتال والحرب، فالحرب إذا ذهبت لم يكن للقتال والإنفاق معنى.

أما كون الخير عام، فالسياق اللغوي(القبلي)- أيضًا- لا يؤيده؛ لأن قوله تعالي: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ تقدم، وهو يفيد عموم الشح، فالسياق يفرق بين الشح هنا والشح في أول الآية، يقول الألوسي:" وغاير بعضهم بين الشح هنا والشح فيما مرّ بأن ما هنا مقيد بالخير المراد به مال الغنيمة، وما مرّ مقيد بمعاونة المؤمنين ونصرتهم، أو بالإنفاق في سبيل الله ــ تعالى ــ فلا يتكرر هذا مع ما سبق "(٥).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٤٨٢، وينظر: جامع البيان للطبري١٩/٥٥، وبحر العلوم للسمرقندي ٣/٥٣، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين٣/٣٩٤، والكشف والبيان للثعلبي ٢/٢٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج٤/ ٢٢١، وينظر: الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي٣/٩٧٦، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/٢٤.

(٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٨/ ٢١٠.

(٤) لباب التأويل للخازن ٣/ ٤١٨ وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٩/ ٣١٢٢.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للألوسي ١١/ ١٦٣.

فالراجح أن: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: بمال الغنيمة؛ فهو قول جمهور العلماء، وقد قيد الشح هنا بالخير الذي هو المال بناء على اعتقادهم أنه لا خير غيره، فهم أشحة على الخير لا يريدون أن يصل شيء منه إليكم، ولا يفوتهم شيء منه، فهم عند الغنيمة أشح قوم، وعند البأس أجبن قوم، وَفِي الْخَبَر:[أَن النَّبِي قَالَ للأَنْصَار: إِنَّكُم لتكثرون عِنْد الْفَزع، وتقلون عِنْد الطمع][1] أَي: تجتمعون عِنْد الْقِتَال، وتتفرقون عِنْد أَخذ المال، وَأما وصف الْمُنَافِقين على الضِّدّ من هَذَا، فَإِنَّهُم كَانُوا جبناء عِنْد الْقِتَال، بخلاء بالمال، وعلى هذا يكون قد وصفهم الله- تعالى- بالشح مرتين، مرة عامة في قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ومرة خاصة في قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾، وفي هذا من المبالغة في الذم ما لا يخفى.

١١- قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب :٢٥).

عدّد الله- تعالى- في هذه الآية نعمه على المؤمنين، وأخبر عن لطفه ووفور رحمته وإحسانه عليهم، حيث رَدَّ عنهم كيد أعدائهم الَّذِينَ كَفَرُوا، يعني الأَحْزَاب المزدحمين حواليهم المتفقين على مقتهم، فأَجْلاهُمْ عَنِ الْمَدينة بدون قتال ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أَيْ: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يُجلُوهم عن بلادهم، بل كَفى اللَّهُ وَحْدَهُ، ونصر عَبْدَهُ، وأعزَّ جُنْدَهُ، وهزم الأحزاب وحده، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب:٩).

(١) أخرجه أبو عبيد الهروي في الغريبين في القرآن والحديث ١٤٤٦/٥(ف ز ع) .

وقد اختلف العلماء في معنى (الخير) الذي لم يناله الأحزاب من النبي(ﷺ) وأصحابه على أقوال-

" قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، يَعْنِي: لَمْ يُصِيبُوا ظَفَرًا وَلا غَنِيمة "(١). ويقول الطبري:" ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ يَقُولُ: لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَالاً وَلا إِسَارًا "(٢). وكَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ خَيْرًا لَوْ نَالُوهُ، فخوطبوا عَلَى استعْمَالِهم(٣).

والسياق البعدي يدل على أن المراد بالخير هنا الظفر بالمسلمين (يعني هزيمتهم وقتلهم) والغنيمة أيضًا، حيث قال سبحانه عن الذين ظاهروا الأحزاب ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ بل أعطاكم ما كانوا هم يتمنونه ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾.

وأجاز الماتريدي معنى آخر في لفظ الخير، فقال:" وجائز أن يكون قوله: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾، أي: سرورًا بما كانوا يأملون ويطمعون هلاك المؤمنين على أيديهم، لما أحاطوا بهم وضيقوا عليهم الأمر حتى احتاجوا إلى الخندق، فكانوا في أيديهم، يقول: إنهم لم ينالوا ذلك السرور الذي كانوا يأملونه ويرجونه "(٤). وقد جمع ابن عباس بين القولين فقال:" ﴿ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ لم يُصِيبُوا سُرُورًا وَلَا غنيمَة وَلَا دولة "(٥).

---

(١) تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧١١، وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم٩/ ٣١٢٦، وبحر العلوم للسمرقندي ٣/٥٣، والنكت والعيون للماوردي ٤/٣٩١، والوسيط في تفسير القرآن للواحدي٣/٤٦٦.

(٢) جامع البيان للطبري ١٩/ ٦٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٣/ ٣٩٥.

(٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٨/ ٣٧٠.

(٥) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٣٥٢.

وذهب بعض العلماء إلى عموم الخير في الآية، فقوله: ﴿ لَمْ يَنَالُواْ خَيْـرًا﴾ أي غير ظافرين بشيء من مطالبهم لا من الدين ولا من الدنيا، فهم لَمْ يَنَـالُوا أَيّ خَيْر، بَلْ رَجَعُوا خَاسِرِينَ لَمْ يَرْبَحُوا إلا عَنَاءَ السَّفَرِ وَغُرْمَ النَّفَقَةِ[1].

وقد رجح الألوسي عموم الخير هنا بدلالة السياق اللغوي، فقال في الآيـة:" أي غير ظافرين بخير أصلاً، وفسر بعضهم الخير بالظفر بالنبي(ﷺ) والمـؤمنين، وإطلاق الخير عليه مبني على زعمهم، وفسره بعضهم بالمال كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات:٨) والأولى أن يراد به كـل خيـر عنـدهم، فالنكرة في سياق النفي تعم "[2].

١٢- قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْـرِ وَإِنْ مَسَّـهُ الشَّـرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت ٤٩).

قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ﴾ نزلَتْ في الكفّار، قيل: في النضر بن الحارث، وقيل: الوليد بن المغيرَة، وقيل: في عُتْبَة بن رَبِيعَة، واللفـظ أعم من ذلك؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. قال المفسرون: الإنسان المراد به هنا: الكافر، وجُلّ الآية يُعْطِي أَنَّها نزلَتْ في الكُفَّـار، وإنْ كـان أَوَّلُهـا يتضمن خُلُقًا ربما شارك فيه بعض المؤمنين [3]، إلا أن السـياق يـدل علـى أن المراد بالإنسان هنا: الكافر، فالسياق القبلي، وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَـادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧) فالله- تعالى- ينـادي هـؤلاء الكفار ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أين الأصنام الذين كنتم تشركونهم في عبادتي ﴿وَضَـلَّ

(١) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٥/ ٤٥٧، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٣١٤.

(٢) روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٢٢/٥، وزاد المسير لابـن الجـوزي ٥٦/٤، والجـامع لأحكام القرآن ٣٧٢/١٥.

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٤٨) بين تعالى حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله في الدنيا تبرأوا عن هؤلاء الشركاء في الآخرة.

والسياق البعدي يدل- أيضًا- على أن المراد بالإنسان هنا: الكافر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ والقنوط: أن يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر وحده بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)، ومعنى الآية: لا يسأم الإنسان- أي الكافر- من دعاء أنواع الخير كالصحة والمال وكل مقاصد النعيم، وإن نزل به شر من مرض أو عسر فهو يئوس من فضل الله قنوط من رحمته، وبذلك تليق الآية بالكفَّار.

والخير في الآية : ﴿ لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ فسره مقاتل ابن سليمان: بالعافية [١]. وفسره البعض بالمال، وَأن الآيَة نزلت فِي الْوَلِيد ابن الْمُغيرَة كَانَ لا يزَال يَدْعُو بِكَثْرَة المال، وَفِيه نزل قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا(١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ (المدثر). وَيُقَال الخير هنا: هو الغنى بعد الفقر، والعافية بعد السقم [٢].

ونص بعض العلماء على أن الْخَيْر فِي هَذَا الْمَوْضِع: الْمَال وَصِحَّة الْجِسْم، فهذا هو الخير عند الْمُشرك [٣]. وقال ابن عباس" ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ المال

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٧٤٨.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٥٩.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٠/ ٤٥٧، والكشف والبيان للثعلبي٨/٣٠٠، والنكت والعيون للماوردي ٥/١٨٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/١٣٦.

وَالْولد وَالصِّحَّة "[1].

وذهب كثير من العلماء إلى عموم أنواع الخير في الدنيا من ملذاتها، فالمراد بالخير ما يشمل المال، والصحة، والجاه، والعز، والسلطان، وكل مقاصد النعيم، وما إلى ذلك مما يشتهى[2]. يقول الشوكاني:" وَالْخَيْرُ هُنَا: الْمَالُ، وَالصِّحَّةُ، وَالسُّلْطَانُ، وَالرِّفْعَةُ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْن مَسْعُود: لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ من دعاء المال " [3].

والسياق اللغوي يدل على عموم لفظ الخير في ملذات الدنيا، حيث قابل الله ــ تعالى ــ الخير بقوله: ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾" أَيْ: وَإِنْ مَسَّهُ الْبَلاءُ، وَالشِّدَّةُ، وَالْفَقْرُ، والمرض فَيَئُوسٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ قَنُوطٌ مِنْ رَحْمَتِهِ. وقيل: يَئُوسٌ مِنْ زَوَالِ مَا بِهِ مِنَ الْمَكْرُوهِ، قَنُوطٌ بِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ ظَنِّ دَوَامِهِ، وَهُمَا صِيغَتَا مُبَالَغَةٍ يَدُلانِ عَلَى أَنَّهُ شَدِيدُ الْيَأْسِ عَظِيمُ الْقُنُوطِ، فقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ (فصلت:٥٠) أَيْ: وَلَئِنْ آتَيْنَاهُ خَيْرًا وَعَافِيَةً وَغِنًى، مِنْ بَعْدِ شِدَّةٍ وَمَرَضٍ وَفَقْرٍ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي أَيْ: هَذَا شَيْءٌ أَسْتَحِقُّهُ عَلَى اللَّهِ لِرِضَاهُ بِعَمَلِي"[4].

فالمراد (بالخير) هنا المال والصحة وما ناسبهما من المطالب العديدة المؤدية إلى السعادة حسبما يتخيلها الإنسان الكافر، وإن ألمّ به الشرّ- مجرد

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٤٠٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٧٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي صـ ٧٥٢، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٣/ ٦.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٥٩٨/٤، والقراءة وجدتها في: تفسير القرآن للسمعاني ٥٩/٥، والجامع لأحكام القرآن ٣٧٢/١٥.

(٤) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٥٩٨.

إلمام، مع هذه النعم الكثيرة التي بين يديه- جأر بالشكوى، وعلا صياحه بالسخط والضيق، وأصبح متذمرًا، قلق الفكر، حرج الصدر، وكاد يؤدّى به ذلك إلى إعلان الحرب على ربه؛ لأنه يائس قنوط من رحمة الله، سيئ الظن بفضل الله وإحسانه، وتجده يكثر من الدعاء والابتهال والتضرع إلى أقصى حد، حتى إذا كشف الله عنه الضر وأذاقه رحمة من عنده أخذ حينئذ يتكبر، مستعليًا بنفسه، مدعيًا أن ما نالـه من أنواع الخير بعد الشر إنما ذلك عن جدارة واستحقاق.

١٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات:٥).

سورة الحجرات من أولها تتحدث عن الأدب مع الرسول(ﷺ) ونهت عن رفع الصوت فوق صوته، ثم ذَمّ تَعَالَى الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ، وَهِيَ بُيُوتُ نِسَائِهِ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلافُ الأَعْرَابِ فقد كانوا ذوى خشونة وَعُلُوِّ الصَّوْتِ وجفاء في أخلاقهم وطباعهم، فَقَالَ: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى الأَدَبِ فِي ذَلِكَ بما يرقق طباعهم ويحسن أخلاقهم، فَقَالَ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ فقد كان النبي(ﷺ) لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمَّات نفسه، وذلك حقٌّ له، فمن سوء الأدب إزعاجه وقت راحته، وعلى من أراد لقاءه أن ينتظره حتى يخرج، ومعنى الآية: ولو أن هؤلاء الذين نادوك من وراء الحجرات وأنت مستريح - لو أنهم - انتظروك حتى تخرج إليهم، لكان انتظارهم وصبرهم خيرًا لهم في دينهم ودنياهم [١].

سبب نزول الآية: قَالَ ابْنُ عَبَّاس: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) سَرِيَّةً إِلَى بَنِي الْعَنْبَرِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ الْفَزَارِيَّ، فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَهُمْ هَرَبُوا وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ، فَسَبَاهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ(ﷺ)، فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٣١٠.

رِجَالُهُمْ يَفْدُونَ الذَّرَارِيَّ، فَقَدِمُوا وَقْتَ الظَّهِيرَةِ، وَوَافَقُوا رَسُولَ اللَّهِ(ﷺ) قائمًا فِي أَهْلِهِ، فعجّلوا قبل أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ)، فَجَعَلُوا يُنَادُونَ: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، ويصيحون حَتَّى أَيْقَظُوهُ مِنْ نَوْمِهِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلاً، وَكَانَ النَّبِيُّ(ﷺ) نَامَ لِلْقَائِلَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ فَادِنَا عِيَالَنَا، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ- عَلَيْهِ السَّلامُ- فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ رَجُلاً، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ سَبْرَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ عَلَى دِينِكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فقال سبرة: إني لا أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ إلا وَعَمِّي شَاهِدٌ (وَهُوَ الأَعْوَرُ بْن بَشَامَةَ)، فَرَضُوا بِهِ، فَقَالَ الأَعْوَرُ: أَرَى أَنَّ تُفَادِيَ نِصْفَهُمْ وَتَعْتِقَ نِصْفَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): قَدْ رَضِيتُ، فَفَادَى نصفهم وأعتق نِصْفَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ وَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ وَقِلَّةِ العقل [1].

وقد اختلف العلماء في معنى (الخير) الذي إذا صبروا حتى يخرج إليهم الرسول(ﷺ) لنالوه، وذلك على قولين -

القول الأول: قال مقاتل وغيره: يعني بالخير: أنهم لو صبروا لخلى سبيلهم بغير فداء، فلما نادوه أعتق نصف ذراريهم وفادى نصفهم، يقول الله ـ تعالى ـ: ولو صبروا لكنت تعتق الأسرى كلهم [2]. ويقول ابن عباس:" ﴿ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ إِلَى الصَّلاة ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأعتق ذَرَارِيهِمْ ونساءهم كلهم، ففدى النبي(ﷺ) نصفهم وَأَعْتَق نصفهم "[3].

---

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي(ت:٤٢٧هـ) ٧٦/٩، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ٤٠٤.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٩٢، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي١٥٢/٤، وتفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٢١٦، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/ ٢٥٥.

(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٤٣٦.

القول الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان أحسنَ لأدبهم في طاعة الله ورسوله [1]. ولَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ في دينهم [2]، يقول الشوكاني:" ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيْ: لو انْتَظَرُوا خُرُوجَكَ، وَلَمْ يُعَجِّلُوا بِالْمُنَادَاةِ، لَكَانَ أَصْلَح لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ رِعَايَةِ حُسْنِ الأَدَبِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ(ﷺ) وَرِعَايَةِ جانبه الشَّرِيفِ وَالْعَمَلِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ من التعظيم والتبجيل"[3].

والسياق اللغوي العام للآيات يدل على ترجيح القول الثاني، فالسورة بدأت بنهي المؤمنين عن أن يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فنُهُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا بَيْنَ يَدَى كَلامِهِ، ثم وجه سبحانه نداءً ثانيًا إلى المؤمنين، أكد فيه وجوب احترامهم للرسول(ﷺ) فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فحينما نزلت الآية كان الصحابة(رضي الله عنهم)- وعلى رأسهم أبو بكر وعمر- لا يكلمون الرَّسُول(ﷺ) إلا السِّرَار أَوْ أَخَا السِّرَارِ، ثُمَّ حث اللَّهُ- عَزّ وَجَلّ- على خَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ، ووعد علي ذلك بالجزاء العظيم، فَقَالَ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. ثُمَّ ذَمّ الله- تعالى- الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ فَقَالَ: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يوصف أكثرهم بعدم العقل لخوفهم على الذراري، فهذه غريزة الإنسان وطبعه، ولا يلام على ذلك، إنما وصفوا بذلك لجهلهم لقدره(ﷺ)، يقول

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥/ ٣٢٨، وزاد المسير لابن الجوزي ١٤٥/٤، وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ٣٦٢/٦.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٣/ ٣٥٠.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٧١/٥.

الفخر الرازي:" ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ فِيهِ بَيَان الْمَعَايِب بِقَدْرِ مَا فِي سُوءِ أَدَبِهِمْ مِنَ الْقَبَائِحِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الْكَلامَ مِنْ خَوَاصِّ الإِنْسَانِ، وَهُوَ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ كَلامٌ، لَكِنَّ النِّدَاءَ فِي الْمَعْنَى كَالتَّنْبِيهِ، وَقَدْ يحصل بصوت يضرب شيء على شيء، وفي الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْم مَا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ كَالنِّدَاءِ، فَإِنَّ الشَّاةَ تَصِيحُ وَتَطْلُبُ وَلَدَهَا وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَالسَّخْلَةُ كَذَلِكَ، فَكَأَنَّ النِّدَاءَ حَصَلَ فِي الْمَعْنَى لِغَيْرِ الآدَمِيِّ، فَقَالَ اللَّهُ ــ تَعَالَى ــ فِي حَقِّهِمْ: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ يَعْنِي النِّدَاء الصَّادِر مِنْهُمْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مَقْرُونًا بِحُسْنِ الأَدَبِ كَانُوا فِيهِ خَارِجِينَ عَنْ دَرَجَةِ مَنْ يَعْقِل، وَكَانَ نِدَاؤُهُمْ كَصِيَاحٍ صَدَرَ مِنْ بَعْضِ الْحَيَوَانِ "[1]. ولما ذمهم بسوء عملهم أرشدهم إلى ما يمدحون به من حسنه، فَقَالَ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾.

ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، فيكون حسن أدبهم سبب في إطلاق سراحهم جميعًا، يقول ابن عطية:" قوله تعالى: ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ يعني في الثواب عند الله وفي انبساط نفس النبي(ﷺ) وقضائه لحوائجهم ووده لهم، وذلك كله خير " [2].

وعلى هذا فالخير يكون في الأولى والعقبى، فالخير في الآخرة معروف من الثواب ونيل الدرجات العلى، وأما في الدنيا فإنهم لو تأدبوا لربهم لزادهم النبي(ﷺ) في الفضل، فأعتق جميع ذراريهم ونساءهم كلهم بلا فداء.

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٨/ ٩٦.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٥/ ١٤٦.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد هذه الجولة في هذه المقالة مع أثر السياق في بيان معنى لفظ (الخير) في القرآن الكريم، يمكن الخروج بالنتائج الآتية :

١- العناية بالسياق ومراعاته في التفسير قديمة قدم التفسير، بدأت مع نزول القرآن، والصحابة- رضى الله عنهم- هم أول من سبق إليه وأصّله من خلال تفسيراتهم التي تراعيه وتستند إليه، ثم استمرت فيما بعد إلى الآن، فقد اعتمد المفسرون على السياق في تفسير الألفاظ والتراكيب، ووظفوه توظيفًا سليمًا لكشف المعنى المراد بما يتناسب مع قواعد التفسير.

٢- اتضح من خلال البحث أن لفظ الخير جاء- من خلال السياق- مناسبًا لحال الوارد في حقهم، فهو في جانب الكفار يدور معناه حول ملذات الدنيا وزخارفها وزينتها من الأموال والأولاد والصحة وما شابه ذلك، أما المؤمنون فبالضد منهم، فهم يرجون خير الآخرة، وخير الدنيا الموصل للآخرة.

٣- اتضح من خلال تحليل لفظ(الخير) في البحث أن لفظ الخير جاء في حق المؤمنين أكثر مما جاء في جانب غيرهم، ولعل هذا يتفق مع منهج الإسلام في الرحمة، ويوضح منهج القرآن في الدعوة إلى كل ما فيه خير وتفاؤل، وأن على الإنسان أن يراجع نفسه ويتوب إلى الله حتى يدخل في زمرة المؤمنين الفائزين، فإن الخير كله في طاعة الله، وإلا فلا خير يناله من كفر بالله وعصى أمره، لا في

الدنيا ولا في الآخرة، وما كان منه في الدنيا- على فرض وجوده- فإنه مزيف وعارض وإلى زوال وعلى الإنسان أن يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه.

وأخيرًا: أوصي بتتبع الألفاظ المكررة في القرآن والتي لها أكثر من معنى، وتحليلها لبيان أثر السياق في تحديد المعنى المراد منها في كل موضع.

جدول بأسماء السور والآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ(الخير)-

اسم السورة	رقم الآية
سورة البقرة	٥٤، ٦١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١٤٨، ١٥٨، ١٨٠، ١٨٤(ورد فيها ثلاث مرات)، ١٩٧(مرتان)، ٢١٥ (مرتان)، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢١(مرتان)، ٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢(مرتان)، ٢٧٣، ٢٨٠.
سورة آل عمران	١٥، ٢٦، ٣٠، ٥٤، ١٠٤، ١١٠(مرتان)، ١١٤، ١١٥، ١٥٠، ١٥٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٨.
سورة النساء	١٩، ٢٥، ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١.
سورة المائدة	٤٨، ١١٤.
سورة الأنعام	١٧، ٣٢، ٥٧، ١٥٨.
سورة الأعراف	١٢، ٢٦، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ١٥٥، ١٦٩، ١٨٨.
سورة الأنفال	١٩، ٢٣، ٣٠، ٧٠.
سورة التوبة	٣، ٤١، ٦١، ٧٤، ٨٨، ١٠٩.
سورة يونس	١١، ٥٨، ١٠٧، ١٠٩.
سورة هود	٣١، ٨٤، ٨٦.
سورة يوسف	٣٩، ٥٧، ٥٩، ٦٤، ٨٠، ١٠٩.
سورة النحل	٣٠(مرتان)، ٧٦، ٩٥، ١٢٦.
سورة الإسراء	١١، ٣٥.
سورة الكهف	٣٦، ٤٠، ٤٤(مرتان)، ٤٦(مرتان)، ٨١، ٩٥.
سورة مريم	٧٣، ٧٦(مرتان).

اسم السورة	رقم الآية
سورة طه	٧٣، ١٣١.
سورة الأنبياء	٣٥، ٧٣، ٨٩، ٩٠.
سورة الحج	١١، ٣٠، ٣٦، ٥٨، ٧٧.
سورة المؤمنون	٢٩، ٥٦، ٦١، ٧٢ (مرتان)، ١٠٩، ١١٨.
سورة النور	١١، ١٢، ٢٧، ٣٣، ٦٠.
سورة الفرقان	١٠، ١٥، ٢٤.
سورة النمل	٣٦، ٥٩، ٨٩.
سورة القصص	٢٤، ٢٦، ٦٠، ٨٠، ٨٤.
سورة العنكبوت	١٦.
سورة الروم	٣٨.
سورة الأحزاب	١٩، ٢٥.
سورة سبأ	٣٩.
سورة الصافات	٦٢.
سورة ص	٣٢، ٧٦.
سورة فصلت	٤٠، ٤٩.
سورة الشورى	٣٦.
سورة الزخرف	٣٢، ٥٢، ٥٨.
سورة الدخان	٣٧.
سورة الأحقاف	١١.
سورة محمد	٢١.

اسم السورة	رقم الآية
سورة الحجرات	٥، ١١(مرتان).
سورة القمر	٤٣.
سورة الرحمن	٧٠.
سورة المجادلة	١٢.
سورة الصف	١١.
سورة الجمعة	٩، ١١(مرتان).
سورة التغابن	١٦.
سورة التحريم	٥.
سورة القلم	٣٢.
سورة المعارج	٢١، ٤١.
سورة المزمل	٢٠(مرتان).
سورة الأعلى	١٧.
سورة الضحى	٤.
سورة القدر	٣.
سورة البينة	٧.
سورة الزلزلة	٧.
سورة العاديات	٨.

قائمة المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن للقاضي أبو بكر بن العربي- علَّق عليه: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت – ط٣-١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن مصطفى العمادي- دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣- أساس البلاغة للزمخشري- حققه: محمد باسل عيون السود-دار الكتب العلمية- بيروت- ط١-١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٤- الأساس في التفسير، سعيد حوّى- دار السلام – القاهرة- ط٦-١٤٢٤هـ.

٥- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي- حققه: كمال بسيوني زغلول-دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١١هـ.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي- حققه: محمد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤١٨ه.

٧- إيجاز البيان عن معاني القرآن لمحمود بن أبى الحسن النيسابوري-حققه: د/ حنيف حسن القاسمي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط١- ١٤١٥ه.

٨- البحث الدلالي في التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي، رسالة دكتوراه مقدمة من: ابتهال كاصد ياسر الزيدي- بإشراف: أ.د/ علي جميل السامرائي- كلية التربية للبنات جامعة بغداد-١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٩- بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: د/ محمود مطرجي، دار الفكر- بيروت.

١٠- البحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي- حققه: صدقي محمد جميل- دار الفكر- بيروت-١٤٢٠هـ.

١١- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد ابن المهدي بن عجيبة- حققه: أحمد عبد الله القرشي-الناشر: د/ حسن عباس زكي- القاهرة- ١٤١٩هـ.
١٢- بدائع الفوائد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية- تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرون- مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- ط١-١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
١٣- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيق: المحامي فوزي عطوي- دار صعب بيروت- ط١- ١٩٦٨.
١٤- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري-حققه: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
١٥- تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد بن محمود الماتريدي- حققه: د. مجدي باسلوم- دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان- ط١-١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
١٦- التحبير في علم التفسير للسيوطي- حققه: د. فتحي عبد القادر فريد- دار العلوم للطباعة والنشر- الرياض- ط١-١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
١٧- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤هـ.
١٨- التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي- حققه: د/ عبد الله الخالدي- دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت- ط١-١٤١٦هـ.
١٩- التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ليحيى ابن سلام، حققته: هند شلبي- الشركة التونسية للتوزيع-١٩٧٩م.

٢٠- تفسير ابن عرفة، لأبي عبد الله محمد بن عرفة المالكي- حققه: جلال الأسيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت – ط١- ٢٠٠٨م.
٢١- تفسير الإمام الشافعي لمحمد بن إدريس- حققه: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان-دار التدمرية – السعودية- ط١- ١٤٢٧ه- ٢٠٠٦م.
٢٢- التَّفْسِيرُ البَسِيْط لعلي بن أحمد الواحدي- أصل تحقيقه في رسالة دكتوراة بجامعة محمد بن سعود ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بتنسيقه- عمادة البحث العلمي- السعودية – ط١-١٤٣٠هـ.
٢٣- التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ- دار المعارف – القاهرة- ط٧ .
٢٤- تفسير التُستري لسهل بن عبد الله التُستري- حققه: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١-١٤٢٣هـ.
٢٥- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٠م.
٢٦- تفسير القرآن العزيز لمحمد بن عبد الله المري الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين- حققه: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمد بن مصطفى الكنز- الفاروق الحديثة – القاهرة- ط١-١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٢٧- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير- حققه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٩هـ.
٢٨- تفسير القرآن العظيم لعبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم- حققه: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز – السعودية- ط٣- ١٤١٩هـ.

٢٩- تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني- حققه: ياسر إبراهيم، وغنيم عباس- دار الوطن- السعودية- ط١- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٣٠- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب- ط دار الفكر العربي- القاهرة(د.ت).
٣١- التفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري- حققه: غلام نبي التونسي- مكتبة الرشدية – باكستان-١٤١٢هـ.
٣٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي ٢/ ٢٢٨ – دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة – القاهرة- ط١- ١٩٩٧م.
٣٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر -الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية- ط١- ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٣٤- تفسير عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني- حققه: د. محمود محمد عبده- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٩هـ.
٣٥- تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي،حققه: د/محمد عبد السلام أبو النيل- دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر- ط١-١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
٣٦- تفسير مقاتل بن سليمان لمقاتل بن سليمان البلخي، حققه: عبد الله محمود شحاته- دار إحياء التراث – بيروت- ط١- ١٤٢٣هـ.
٣٧- تفسير يحيى بن سلام ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة- حققه: د/ هند شلبي- دار الكتب العلمية، بيروت- ط١-١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٣٨- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس-رضي الله عنهما- جمعه: الفيروزآبادى- دار الكتب العلمية- لبنان.

٣٩- تهذيب اللغة للأزهري-حققه: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي-بيروت- ط١- ٢٠٠١م.
٤٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي- حققه: عبد الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة- ط١- ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٤١- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي- حققه: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية – القاهرة- ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
٤٢- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري حققه: د/ عبد الله ابن عبد المحسن التركي- دار هجر للطباعة والنشر – ط١- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٤٣- الجامع الكبير لمحمد بن عيسى الترمذي- حققه: بشار عواد معروف- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٩٩٨م.
٤٤- الجواهر الحسان في تفسير القرآن لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي- حققه: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.
٤٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي- دار الفكر- بيروت- ط ١٩٩٣هـ.
٤٦- دلالة السياق، د/ ردة الله الطلحي- جامعة أم القرى- السعودية- ط١- ١٤٢٤هـ.
٤٧- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د: عبد الفتاح البركاوي – ط دار المنار- القاهرة- ١٤٠١هـ- ١٩٩١م.

٤٨- دور الكلمة في اللغة لاستيفن أولمان، ترجمة د/ كمال بشر- ط مكتبة الشباب- القاهرة - ١٩٩٢م.
٤٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم لمحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي-حققه: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية - بيروت- ط١-١٤١٥هـ.
٥٠- زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي- تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ.
٥١- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني- مطبعة بولاق- القاهرة- ١٢٨٥هـ.
٥٢- سنن ابن ماجة (محمد بن يزيد القزويني)- حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون- دار الرسالة العالمية- ط١- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٥٣- سنن أبو داود السجستاني- حققه: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي- دار الرسالة العالمية- ط١-١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٥٤- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- حققه: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- ط٣- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
٥٥- السنن الكبرى للنسائي- حققه: حسن عبد المنعم شلبي- مؤسسة الرسالة - بيروت- ط١-١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٥٦- السياق وتوجيه دلالة النص، د/عيد بلبع-بلنسية للنشر - مصر- ط١- ١٤٢٩ه- ٢٠٠٨م.
٥٧- صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني- حققه: علي رضا عبد الله- دار المأمون للتراث- دمشق- سوريا.

٥٨- العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ لمحمد الأمين بن محمد الجكني الشنقيطي- حققه: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة- ط٢، ١٤٢٦هـ.
٥٩- علم اللغة(مقدمة القارئ العربي) د/ محمود السعران- دار المعارف- مصر-١٩٦٢م.
٦٠- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري- حققه: الشيخ زكريا عميرات- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٦هـ.
٦١- غريب القرآن لابن قتيبة- حققه: أحمد صقر-دار الكتب العلمية – ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
٦٢- غريب القرآن للسجستاني-حققه: محمد أديب جمران- دار قتيبة- سوريا- ط١-١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٦٣- فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي- حققه: نور الدين طالب-دار النوادر- ط١- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٦٤- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت-ط١- ١٤١٤هـ.
٦٥- في علم الدلالة، د/ محمد سعد محمد، مكتبة زهراء الشرق، ط١- ٢٠٠٢م.
٦٦- كتاب المصاحف لأبي بكر بن أبي داود السجستاني- حققه: محمد ابن عبده-الفاروق الحديثة – القاهرة – ط١-١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
٦٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري- دار الكتاب العربي- بيروت- ط٣-١٤٠٧هـ.

٦٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي- حققه: أبي محمد بن عاشور: دار إحياء التراث العربي، بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٦٩- الكليات لأبي البقاء الكفوي- حققه: عدنان درويش، ومحمد المصري- مؤسسة الرسالة- بيروت.
٧٠- لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد الشيحي، المعروف بالخازن- صححه: محمد علي شاهين-دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٥هـ.
٧١- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي- حققه: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض-دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٧٢- لسان العرب لابن منظور- دار صادر – بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ.
٧٣- محاسن التأويل لجمال الدين بن محمد القاسمي- حققه: محمد باسل ـ دار الكتب العلمية- بيروت- ط١-١٤١٨ه.
٧٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق ابن غالب ابن عطية الأندلسي- حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١-١٤٢٢هـ.
٧٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي-حققه: يوسف علي بديوي- دار الكلم الطيب، بيروت- ط١- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٧٦- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي- حققه: محمد أمين الصناوي -دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤١٧هـ.

٧٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله(ﷺ) للإمام مسلم- حققه: محمد فؤاد عبد الباقي-دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٩٥٤م.

٧٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه: عبد الرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ.

٧٩- معاني القرآن لأبي جعفر النحاس- حققه: محمد علي الصابوني-جامعة أم القرى - مكة المكرمة-ط١-١٤٠٩ه.

٨٠- معاني القرآن للفراء- حققه: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر- ط١.

٨١- معاني القرآن وإعرابه للزجاج(ت:٣١١هـ) ٤/ ٣٣٠- حققه: عبد الجليل عبده شلبي-عالم الكتب - بيروت-ط١- ط١-١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٨٢- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني-حققه: حمدي ابن عبد المجيد السلفي- مكتبة ابن تيمية - القاهرة-ط٢.

٨٣- معجم مقاييس اللغة لابن فارس- حققه: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٨٤- المعنى اللغوي، دراسة نظرية وتطبيقية، د/ محمد حسن جبل-ط ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

٨٥- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت-ط٣- ١٤٢٠هـ.

٨٦- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- حققه: صفوان عدنان الداودي- دار القلم- دمشق -ط١- ١٤١٢هـ.

٨٧- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د: علي زوين- مطابع الشؤون الثقافية العامة- بغداد - ط ١٩٨٦م.
٨٨- النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي- حققه : السيد عبد المقصود عبد الرحيم - دار الكتب العلمية - بيروت.
٨٩- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه لمكي ابن أبي طالب القيسي ، إشراف أ. د: الشاهد البوشيخي- الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - جامعة الشارقة- ط١-١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٩٠- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي- حققه: صفوان عدنان- دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت- ط١ - ١٤١٥هـ.
٩١- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي- تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون- دار الكتب العلمية، بيروت - ط١- ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.